

د. قاسم عبده قاسم

القراءة الصهيونية للتاريخ

الحروب الصليبية نموذجاً

القراءة الصهيونية للتاريخ
الحروب الصليبية نموذجا

دكتور قاسم عبده قاسم



دار الهلال

مقدمة

التاريخ من أهم علوم الإنسان ؛ لأنه العلم الذى يلهث وراء الإنسان من عصر إلى آخر محاولا أن يفهم الإنسان وأن يُفهمه حقيقة وجوده من خلال بحث ماضيه . وقد مضى ذلك الزمان الذى كان فيه التاريخ حلية ثقافية تزدان بها الرؤوس الفارغة أو أحاديث سمر نتداولها فى المجالس والنوادى . فالحاضر هو الابن الشرعى للماضى . ومن يحاول أن يفهم مشكلات الحاضر دون البحث عن جذورها فى الماضى إنما يحرث فى البحر.

ومن ثم فإن التاريخ علم لاينتمى إلى الماضى سوى من حيث موضوعه؛ أما هدفه وفائدته فإنهما يتعلقان بالحاضر والمستقبل. ومن ثم فإن الجماعات الإنسانية تعيد قراءة تاريخها لصالح أهدافها الآنية والمستقبلية . وفى هذه «القراءات» التاريخية تعاود الجماعات تسليط الضوء على

عناصر بعينها فى تاريخها، ربما تكون قد أهملتها فى مراحل سابقة. وهكذا ، فإن «التاريخ» يحدث مرة واحدة ؛ ولكنه يتعرض لإعادة القراءة مرات ومرات . وبعض هذه «القراءات» للتاريخ قد تكون قراءة إيديولوچية منحازة ؛ «فالقراءة الاستعمارية» للتاريخ ، مثلاً ، حاولت تبرير التسلط الرأسمالى الغربى من خلال قراءة التاريخ من منطق انتقائى وإبراز ما يبرر الدور الذى يقوم به الاستعمار فى بلاد ذات حضارات عريقة فى المنطقة التى تمتد ما بين الصين وحوض البحر المتوسط. وثمة مثال آخر تمثل فى «قراءة» أوربية منحازة ضد الدولة العثمانية والمسلمين العرب لصالح الحضارة الكلاسيكية. وقد تعلمت الحركة الصهيونية الدرس الأوربى ووعته تماما .

والحركة الصهيونية قد فهمت الدعاية على أنها حقيقة وعناق حضارى، مما ترتب عليه أن اهتم مخططو الدعاية الصهيونية بالنواحى الأدبية والتاريخية. فالأدب هو الوسيلة التى تخلق الشحنة العاطفية والفن من أهم قنوات صياغة المواقف والوجدان من خلال الاعجاب بالجوانب الجمالية .التى

تتسرب إلى الوجدان . كذلك فإن التاريخ لغة قوية لاتنحصر فى محاولة بث الاعجاب ومداعبة مشاعر الزهو القومى، وإنما هو أيضا مخزن للتجارب الإنسانية التى يمكن أن تنير الحاضر وتهدى إلى سبيل المستقبل . فكتابة التاريخ هى نقطة التقاء بين الماضي والحاضر، وبما أن الحاضر يتغير على الدوام، فإن نقطة الالتقاء هذه فى حركة مستمرة ، ومن خلال هذه النقطة ، أى قراءة التاريخ، يستطيع المؤرخ أن يتسلل إلى العقل الفردى والجماعى بتقديم النماذج التاريخية والمواقف التى تخدم أهدافه. كما أن التاريخ يحمل مصداقية ذاتية فى داخله بحيث يرسخ مفاهيم معينة.

والدراسة التى نقدمها فى هذه الصفحات هى فى حقيقة أمرها محاولة لكشف أبعاد «القراءة الصهيونية» للتاريخ العربى. وإذا كانت الصهيونية قد ركزت على محاولة سلب التاريخ والتراث العربى فى كل عصور التاريخ، ونسبته زورا إلى اليهود، فإن فترة الحروب الصليبية لم تكن استثناء من ذلك بطبيعة الحال. إذ إنها يمكن أن تكشف عن نموذج تطبيقى لاستخدام الحركة الصهيونية للتاريخ والنماذج

التاريخية لتحقيق أهدافها. وإذا كانت هذه الدراسة قد جاءت متواضعة من حيث حجمها ومجالها، فإننا نعتقد أنها جهد أولى وبداية أرجو أن تتاح لى فرصة متابعتها إن شاء الله.

وأخيرا فإننى اتوجه بهذه الدراسة إلى المواطن العربى، سواء كان من المتخصصين أو عامة المثقفين راجيا من الله أن تكون ذات فائدة ما، والله الموفق والمستعان.

د. قاسم عبده قاسم

الفصل الأول

الحركة الصليبية : ماهيتها وتطورها

الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية- العوامل والأسباب- الحملة الشعبية ومغزاها- أهداف الحركة الصليبية- المواجهة العربية الصليبية ونتائجها- نهاية الوجود الصليبى فى الشرق.

كانت «الحروب الصليبية» التى شنها الغرب الكاثوليكى على الشرق العربى الإسلامى حربا مثل أية حرب أخرى، من حيث العدوان وإراقة الدماء ومن حيث تذرعها بذريعة أخلاقية تبرر بها نفسها. وهو أمر لانستغربه فى دراستنا لأية حرب، ولكنه يبدو غريبا بالفعل عند دراستنا للحركة الصليبية. فقد قامت تحت راية الصليب رمز الديانة المسيحية التى تظهر قدرا كبيرا من المسالمة فى كتبها المقدسة. كما أن الصليب نفسه فى المفهوم المسيحى رمز للتضحية بالنفس فداء

للآخرين. إذ كان الهدف المعلن للحروب الصليبية هو تحرير القدس التى شهدت آلام المسيح وعذابه ، والتى فيها قبره، من أيدى المسلمين. وهو ما يعنى أن هذه الحرب، من الناحية الرسمية المعلنة، كانت «حربا مسيحية مقدسة» . فكيف حدث أن تكونت خلفية إيديولجية جعلت الحرب مقبولة أخلاقيا؟ وما هى العوامل والأسباب التى أدت إلى بروز الحركة الصليبية على أرض الواقع ؟

فى تتبعنا للخلفية الإيديولوچية للحركة الصليبية نجد أمامنا تيارات رئيسية ثلاثًا تصب فى مصب واحد برزت من طياته فكرة الحملة الصليبية . والتيار الأول يأتى من داخل الديانة المسيحية نفسها متمثلا فى التطورات الفكرية والممارسات الدينية التى تبلورت فى القرن الحادى عشر فى عامل من أهم عوامل رسوخ الفكرة الصليبية . هذا التيار المسيحى يتجمع من رافدين أساسيين هما : الحج ، وفكرة الحرب المقدسة . أما التيار الثانى فينشأ عن التفاعلات الاجتماعية/ الفكرية الناجمة عن استقرار القبائل الجرمانية فوق التراب الأوربى ، وما نتج عن ذلك بالضرورة من صياغة المثل والقيم الجرمانية عن البطولة

والشجاعة الحربية فى مصطلحات مسيحية ، ثم محاولات الكنيسة للسيطرة على الحروب الاقطاعية التى مزقت الغرب اللاتينى من خلال حركة «هدنة الرب» و«سلام الرب». ويأتى التيار الثالث انعكاسا للتأثير الإسلامى على الغرب الأوربى فى تلك الآونة ، سواء من خلال اقتباس فكرة الجهاد الإسلامية ، أو من خلال ما تعلمه الغرب من الحرب التى شنها الكاثوليك الإسبان ضد مسلمى الأندلس.

بيد أن الفكرة ، فى حد ذاتها ، لم تكن تسبب الظاهرة التاريخية التى نحدد بصددها : أعنى الحركة الصليبية ، ما لم تكن متوافقة مع الظروف التاريخية ، وما لم تكن استجابة لحركة المجتمع فى الغرب اللاتينى. وفى تصورنا أن فكرة الحملة الصليبية ، أو الحرب المقدسة فى الشرق ، قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما ، فى الغرب المسيحى ، والشرق البيزنطى ، والشرق العربى الإسلامى على السواء.

فقد شهد القرن العاشر فى أوربا حركة اصلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية ، ثم تطورت هذه الحركة إلى حركة إحياء كبرى تستهدف إصلاح الأديرة والكنيسة،

وإصــلاح العــالم[1] فى أواسط القرن الحـادى عـشر. وكـان إصلاح العالم. يعنى إخـماد الحـروب الاقطاعـيـة التى كـانت

١- تطورت الحـركـة الإصـلاحـيـة فـى القـرن الحـادى عـشـر تطورا كبيرا ، ففى منتصف القرن الحادى عشر بدأت فترة من أخطر فترات التاريخ الأوربى، إذ إن السنوات الثمانين التى تمتد من منتصف القرن الحادى عشر حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر كانت هى الفترة التى شهدت حركة الاصلاح الجريجورى وهى أيضا فترة النمو التجارى الضخم، وفترة صعود المجتمعات الحضرية، كما أنها فترة التعبير الأول عن النفوذ السياسى للطبقة البورجوازية الناشئة. كان ذلك عصرا انتهت فيه عزلة أوربا عن عالم البحر المتوسط، وبدأ الأوربيون يحـاولون النيل من المسلمين والبيـزنطيين الذين طالت سيطرتهم على حوض البحـر المتوسط وتجارته. بيد أن جميع التغييرات التى حدثت جاءت بعد النضال الفكرى والتحويل الايديولوجى . فقد كان المصلحون الجريجوريون يشكون من سيطرة الدولة على الكنيسة وتورط الكنيسة فى الالتزامات الاقطاعية، والسيمونية (أى بيع الوظائف الدينية) . والجدير بالذكر أن هذه الحركة الاصلاحية لم تكن استمرارا للحركة الكلونية التى بدأت فى القرن العاشر، وإنما كـانت ثورة على الأديرة الكلونية التى باتت حجر عثرة فى سبيل تقدم الكنيسة. انظر:
Norman F. Cantor , the Medieval History , (New York 1969) pp. 271- 78

سمة من سمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية، وتعرض لكثير من الغارات الجرمانية المتوالية. وكان الأساقفة ومقدمو الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى بحيث باتت الكنيسة متورطة فى الالتزامات الاقطاعية ، وظهر من بين رجالها من يقود فرسانه فى حرب إقطاعية. ولم يجد المصلحون وسيلة فعالة لمنع الحروب الاقطاعية تماما، ولكنهم توصلوا إلى صيغة عملية لتحديد نطاقها . وجاءت حركة السلام المتمثلة فى «هدنة الرب» لتمنع القتال فى نهاية الأسبوع وفى الأيام المقدسة، وطوال فترة الصوم الكبير، بحيث لم يعد للحروب الاقطاعية سوى فترة الصيف فقط. ومن ناحية أخرى جاءت حركة «سلام الرب» لتشمل الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المتحاربين، أو من تصيبهم الحروب الاقطاعية بشرورها . إذ أن هذه الحركة كانت تحرم شن الحرب على رجال الكنيسة، والحجاج، والتجار، والنساء والمسنين، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ، ومستلزمات الزراعة بشكل عام. أى أن حركة «سلام الرب» كانت تحمى العناصر الكنسية، والتجارية ، والزراعية ، والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجمات المتحاربين. وعلى

الرغم من ذلك، فإن حركة السلام المتمثلة فى «هدنة الرب» و«سلام الرب» لم تكن تحقق نجاحا كبيرا ما لم يكن أحد كبار الأمراء الإقطاعيين يسعى لتحقيق مأرب خاص من خلال تأييده لها. كما أن كثيرين من الأمراء والفرسان الاقطاعيين كانوا يحنثون في أيمانهم التى قطعوها بالحفاظ على هذه الحركة.

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا وألمانيا لإقرار النظام، والضرب على أيدى من يعبثون بحركة «هدنة الرب» وحركة «سلام الرب». وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب [١]. ورب قائل بأن الكنيسة لم تلعب دورا فى الحرب ولكنها كانت تقوم بمهمة بوليسية، ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة . فقد كون جريجورى السابع

١- حول هذا الموضوع انظر:
Hans Einrhard Mayer, The Crusades (trans from German by John Cillingham), Oxford Press1972, pp. 19-20 .

جيشا أسماه جيش القديس بطرس militia Sancti Petri، وكان أولئك هم جنود الكنيسة المسلحين . وقد حدث ذات مرة أن أفلت زمام «جيش السلام» الكنسى وراح جنوده ينهبون البلاد ويقتلون العباد مما اضطر أحد الكونتات المحليين إلى تجريد جيش مضاد لكى يعيد النظام إلى صفوف جيش السلام الكنسي. وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت هناك سبعمائة جثة من جثث جنود الكنيسة تغطى ساحة القتال (١). وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الإصلاح بالشكل الذى أدى فى النهاية إلى تأكيد مكانة البابوية وحكمها على العالم الغربى الكاثوليكى وسرعان ما أدى هذا إلى الصراع الحاد العنيف ضد الامبراطورية. هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع فيما عرف باسم مشكلة التقليد العلمانى(٢).

١- Fredrick H Russell, The Just War in the Middle Ages, Cambridge Universiy Press, 1973, p. 17 .

٢- عن تفاصيل هذا الصراع انظر:

Cantor , op. cit., pp. 286- FF.

أيضا : سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى (الطبعة السادسة، الانجلو المصرية- القاهرة١٩٧٥) ج١ ، ص٣٢٨- ٢٩٤ .

كان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ، فقد أقنع البابا اسكندر الثانى، وهو ما يزال كاردينالاً، بتأييد الغزو النورمانى لانجلترا . وعندما اعتلى العرش البابوى اقترح تجريد حملة لاستعادة الممتلكات البيزنطية التى فقدتها الامبراطورية البيزنطية نتيجة لهزيمتها فى معركة مانزكرت، أو ملاذكرد، أمام الأتراك السلاجقة سنة ١٠٧١م . وكان واضحا أن جريجورى السابع ينوى قيادة الحملة المسيحية المقترحة بنفسه، ظنا منه أن هذه الحملة ربما تؤدى، فى حالة نجاحها ، إلى اخضاع الكنيسة الشرقية وإعادة توحيد العالم المسيحى تحت زعامة بابا روما . ومن ناحية أخرى كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى أسبانيا. ولاشك فى أن جريجورى السابع قد حاول أن يجعل من ورطة الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمة مانزكرت ميزة عاجلة تفيد منها البابوية. ولكن اندلاع الصراع بينه وبين الامبراطور الألمانى، هنرى الرابع واستمراره، حال دون تنظيم أية حملة مسيحية إلى الشرق أثناء بابوية جريجورى السابع. وجاء البابا أربان الثانى Urban II ، الذى كان أكثر اعتدالا وأقل عدوانية وطموحا منه، لكى يبدأ الحركة الصليبية .

ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال يطرح نفسه فى إلحاح عن حقيقة الدوافع التى دفعت البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى المنطقة العربية وإذا ما أردنا البحث عن الإجابة المناسبة وجدنا أنفسنا مقودين إلى استعراض الخطوط العريضة فى خطاب إربان الثانى فى كليرمون Clermont، فى إقليم برجاندى الفرنسى ، فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م. لقد كانت خطبة البابا على ما تذكره المصادر مثالا رائعا فى البلاغة قلما تكرر فى العصور الوسطى(١). فالواضح أن البابا قد استطاع أن يمس كافة

١- الحقيقة أن النص الأصلى لخطبة أربان الثانى لم يصلنا ، وإنما وردت لنا فى كتابات المؤرخين المعاصرين عدة صياغات له- انظر:

RHC., Hist. occ., III, 727 - 28 , III, 770 , IV , 16 .

حيث روايات فوشيه دى شارتر ، وروبير الراهب ، وبلدريك على التوالى. انظر الترجمة الإنجليزية فى:

Edward Peters (ed.), The First Crusades and Other Source Materials (University of Pennsylvauia Press 1971) , pp. 2-16 .

حيث يورد ترجمة لكل من روبير الراهب، ورواية المؤرخ المجهول، وبلدريك، وجيوبرت النوجنتى على التوالى، ثم خطاب التعليمات الذى وجهه البابا اربان إلى الصليبيين .

الدوافع التى يمكن أن تكون كامنة فى وجدان سامعيه، وأنه قد لعب على أوتار الأمل والطمع فى نفوسهم. ومن ناحية آخرى يستطيع المتأمل فى خطاب أربان أن يرصد بعض دوافع البابوية وراء الدعوة إلى شن حرب مقدسة ضد المسلمين.

لقد كانت دوافع البابوية مزيجا مختلطا . فإن الحرب المقدسة، بوصفها من أدوات سياسة البابا الخارجية ، كانت تستهدف مكاسب عديدة، منها ما هو معلن ومنها ما هو خفى ويمكن فهمه من استقراء الظروف التاريخية، ففى المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد الاستيلاء على الأراضى المقدسة من المسلمين، وحماية طرق الحجيج المسيحى. بيد أنه من الواضح أيضا أن البابا رأى فى مثل هذه الحملة فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب (اللتين كانتا قد تباعدتا تماما منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤) تحت زعامته، بحيث يتم تكريسه زعيما للعالم المسيحى بالشكل الذى يدعم موقفه فى مواجهة الامبراطورية . كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب الذين لايكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ، لاسيما

وأن حركة السلام التى ترعاها الكنيسة كانت قد لقيت تجاهلا تاما من جانب بعض أهم مؤيديها . ويمكن أن نلاحظ فى هذا الصدد أن سادة الأراضى التى تم استردادها من مسلمى الأندلس في غضون القرن الحادى عشر قد صاروا أفصالا إقطاعيين تابعين للبابا فى روما، وهو ما يعنى أن البابوية كانت تسعى إلى أن تكون الأرض المقدسة، بعد أخذها من المسلمين، تابعة للبابا . ومن ثم تكون هذه الحرب المقدسة تعبيرا عمليا عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى، وهى زعامة كانت تمثل ركنا جوهريا من أركان وجود البابوية ذاتها . كما أن البابوية كانت ترى أن الحرب المقدسة يمكن أن تجتذب شعوب الشمال الأوربى إلى علاقات أكثر توطدا مع البابوية .

وعلى الجانب الآخر، كانت دوافع من قبلوا المشاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجا غريبا ومثيرا من العوامل والأسباب. وإذا كانت المثالية والرغبة فى الحصول على الأراضى، والبحث عن المجد الشخصى أهم الأسباب التى حفزت أبناء الطبقات العليا إلى حمل شارة الصليب، فإن الظروف الاجتماعية المحيطة هى التى دفعت بالكثيرين من

أبناء الطبقات الدنيا فى غرب أوربا إلى الرحيل صوب المشرق جنودا فى جيش مقدس، يحظون بمساندة إخوانهم وبمباركة البابا بحثا عن فلسطين الأرض «التى تفيض باللبن والعسل» . ولأن أحلام المقهورين فى أوربا العصور الوسطى لم تكن تتحقق سوى فى القليل النادر، فإنهم انطلقوا فى هذا السبيل الوعر دون أن يعبأوا بمخاطر الطريق إلى الأرض المقدسة، أو بما ينتظرهم على ترابها من أهوال ومشاق فى غياهب المجهول . ذلك أن شيئا لم يكن ينتظرهم فى أوربا سوى الموت جوعا وقهرا تحت سيطرة أسيادهم الاقطاعيين وحروبهم الدائمة. أما فى الأرض المقدسة فهناك أمل دينى وطمع دنيوى يجذبهم إلى إمكان تحقيق ظروف معيشية أفضل، فضلا عن الوعد الذى بذله البابا لهم بالخلاص.

والحقيقة أننا لايمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت، ولم يكن تدينا عقلانيا حقيقيا . ذلك أن الجو المحموم الذى أشاعته الدعاية المسعورة ضد المسلمين ، والتى اذكت جهود البابوية والمبشرين الجوالين من أمثال بطرس الناسك نيرانها- هذه الدعاية جعلت نفوس بعض الفرسان

تضطرم بالرغبة في قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم . ولأن غرب أوربا آنذاك كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين، فإن مقاتليه الذين أسهموا فى الحرب المسيحية ضد مسلمى الأندلس كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ما كان يتعارض مع تصرفات المسيحيين الأسبان أنفسهم، ولاشك فى أن بعض الناس قد حملوا شارة الصليب أملا في نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب.

ومع ذلك فإن الفرسان الذين لايملكون أرضا ، والأبناء الصغار فى الأسر الاقطاعية ممن لايحق لهم وراثة الاقطاع (بمقتضى القانون الاقطاعى الذى كان يجعل الوراثة حقا للابن الأكبر فقط) قد انضموا إلى الحملة المقدسة يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم. وقد لعب البابا اربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح حين أشار فى خطبته إلى حال الجوع إلى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعانى منها عشية الحروب الصليبية. ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر توافق مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الإقطاعية فى

فرنسا وقيام نمط من التوازن السياسى البدائى فيما بينها .
وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد باتت ضئيلة بالفعل. ومن ثم فإن اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم . فقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر تواقين إلى المغامرة فى الخارج، وجاءت الدعوة إلى الحملة الصليبية لتروي تعطشهم إلى المغامرة. وكان من الواضح أن مثل أولئك الفرسان (ومنهم على سبيل المثال ريمون أمير تولوز وجودفرى أمير اللورين) سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها الكنيسة لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى الشرق ، إذ كان ذلك يكفل لهم الستار الديني المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية. ومن ناحية أخرى كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحملة يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكريا يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى أوطانهم ، على حين وجد البعض فى هذه الحملة المقدسة فرصة للهروب من العدالة ... والحقيقة أن دوافع المشاركين فى الحملة تختلف اختلافا كبيرا بحيث يصعب إحصاؤها جميعا .

ما النورمان فى ايطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة المقدسة بدافع من كراهيتهم العميقة للدولة البيزنطية ، فقد كانت الحملة بالنسبة لهم حربًا ضد أباطرة بيزنطة أكثر منها حربا ضد المسلمين. ذلك أن بوهيموند Bohemond ابرز قادتهم ، كان قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل[١].

على أية حال ، كان من الممكن توقع ردود أفعال أبناء الطبقة العليا ازاء خطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون. ولكن المثير حقا كان هو صدى الدعوة إلى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى. وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر، حيث تسود مظاهر

١- حول هذا الموضوع انظر:
The Alexiad of Anna Commena, Translated from the Greek by E. R. A. Sewter (Penguin 1979) , pp. 166-173; F. Chalandon Essai sur le reigne d'Alexis I er Comnene, 1081 (Paris1900) , pp. 84-87 .
كذلك : عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور اليكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨ (رسالة دكتوراه غير منشورة- جامعة المنصورة ١٩٨١م)، ص١١٤-١١٥ .

الجهل وتتفشى الأمية، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات ، كان لابد أن تأتى استجابة العامة لمثل هذه الدعوة قوية، بل وهستيرية ، وهو ما حدث بالفعل. ففى هذا الجو كانت تشيع أنباء عن الرؤى والاحلام المقدسة، وظهور القديسين والقديسات، والنجوم التي تتساقط من السماء، وفى هذا الجو أيضا يكتسب المشعونون والمبشرون الجوالون من أمثال بطرس الناسك مكانة هائلة فى نفوس الناس البسطاء. فقد كان بطرس وأمثاله تجسيدا للتطرف الدينى الذى حكم المجتمع الغربى فى القرن الحادى عشر بعد اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من تمامها وتوقع الناس لنهاية العالم يوم القيامة (١).

ومن ناحية أخرى ، فإننا يمكن أن نفسر النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة إلى الحرب المقدسة فى ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة

١- حول هذا الموضوع انظر:
L' An Mille- Oeuvres de : Luitprand , Raoul Gilber Ademar de Chabannes , Adalberon, et Helgaud (traduites et Présentées par : Edmond Pogono) France 1974 .

وغـيـر آمنة [1]. فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية ثم الغارات التى قام بها الفيكنج فى القرن العاشر. وغالبا ما كان السادة الاقطاعيون يعارضون إزالة الغابات والزراعة مكانها لأنها كانت المكان الذى يمارسون فيه رياضة الصيد التى كانت شاغلهم الأساسى فى غير أوقات الحرب. كما أن القرية التى لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب أو حتى الحرق بأيدى العصابات الاقطاعية المتحاربة ، أو على أيدى عصابات الخارجين على القانون. وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تلعب دورا فى حماية الفلاحين ، فإن ما قدمته فى هذا المجال لم يكن على

١- نكتفى هنا بالإشارة إلى الخطوط العريضة ونحيل القارئ إلى بعض المراجع المتخصصة . انظر:

Painter , S., A history of the Middle Ages (England 1953), pp. 118-122; Mayer , The Crusades, pp. 22-23; Kenneth M. Setton (ed.), A History of the Crusades, (Philadelphia 1955), I, p. xx.

أيضا : نورمان ف. كانتور ، التاريخ الوسيط- قصة الحضارة : البداية والنهاية (ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، دار المعارف ١٩٨١) ، ج١ ، ص٣٤٥-٣٦٨ .

أية درجة من الفعالية والأهمية. ومن ناحية أخرى، أسهمت الكوارث الطبيعية فى زيادة المساحات القاتمة الكئيبة فى الصورة.

هكذا، إذن، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها فى الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التى وجهها البابا إلى جماهير الأوربيين. فقد كانت جموع الفلاحين المطحونين فى مجتمع يستولى الاقطاعيون فيه على نتاج عملهم فى الحقول، ويتركونهم فى مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل ، هم أول من استجاب لدعوة اربان.

على أية حال، فإن البابوية سرعان ما أصدرت مرسوما عاما بالغفران لكل من يحمل شارة الصليب، ثم أعلنت أنها سوف تتولى حماية أملاك المشاركين فى هذه الحملة . وهكذا بدأت الحروب الصليبية. وكانت هذه الحروب حربا بدأتها الكنيسة لا الدولة، ولم يكن المشاركون فيها يأتمرون بأمر حاكم علمانى، إمبراطورا كان أم أميرا، وإنما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب بناء على وعد من البابا بالغفران. كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرة المسيحية ، وتجلى ذلك واضحا فى حقيقة أنه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا فى

صفوف الحملة المقدسة دون أن يتحملوا تبعات التكفير والتوبة. حقيقة أن الحملات الصليبية التى تلت الحملة الأولى قد جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين، ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا، كما أن الأمراء والفرسان قد حملوا شارة الصليب استجابة لدعوته .

خرجت فكرة الحرب المقدسة إلى حيز التنفيذ ، وكان الإصلاح الكنسى الذى بدأته الأديرة الكلونية، ثم قادته المجموعة الجريجورانية. والسياسة البابوية ، ونظرية الحرب المقدسة هى الخلفية التى استندت إليها خطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥م . ومن ناحية أخرى كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فى أوربا آنذاك هى الخلفية التى خرجت منها دلائل الترحيب والقبول والحماسة التى قابل بها المعاصرون خطبة البابا. وهذه العناصر هى التى شكلت الروح التى دفعت الجهود الدعائية التى أسهمت فى تشكيل الجيوش المسيحية التى توجهت لقتال المسلمين فى فلسطين، كما كانت هى القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الحملة الشعبية. لقد كانت الفكرة الصليبية نتاجا لتفاعل القوى التى لبت نداء البابوية فى

كليرمون، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا فى الحملة الأولى بالفعل.

وفى تصورى أن فكرة الحملة الصليبية قد ولدت فى أذهان من عايشوها وخاضوا أحداثها بالفعل، ومن ثم فإننا يجب أن نتوخى الحذر ونحن نستخدم مصطلح «الحملة الصليبية الأولى». ذلك أن صياغة فكرة الحملة الصليبية، كمثال ونموذج، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى، وخرجت من طياتها لتخلق نموذجا ثابتا فى أذهان الدعاة الذين روجوا لفكرة خروج الحملات التالية. ولما تكررت «الحملات» على نموذج «الحملة الأولى» صارت الحروب التى استمرت على مدى قرنين من الزمان ظاهرة تاريخية حملت إسمها ومصطلحها .

وعلى مدى قرنين من الزمان تقريبا، منذ خروج الحملة الأولى من أوربا سنة ١٠٩٦ ميلادية وحتى سقوط آخر المعاقل الصليبية فى بلاد الشام سنة ١٢٩١ ميلادية، توالت على شاطئ البحر المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين الذين جاءوا بعشرات الألوف، زرافات ووحدانا ، من المقاتلين والحجاج، فى مجموعات عسكرية صغيرة بقيادة الأمراء

الاقطاعيين ، أو في جيوش كبيرة يقودها أكبر حكام أوربا آنذاك. وهو ما يعنى أن الحملات الصليبية السبع الشهيرات لاتعبر عن واقع الحال، إذ كانت الحركة الصليبية فى حقيقة الأمر أكبر من أن نحصرها فى تلك الموجات الكبيرة التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطئ فلسطين (كانت هذه الموجات الصليبية تضرب أحيانا شواطئ عربية أخرى فى مصر وشمال أفريقيا والحجاز، بل إن الحملة الرابعة ضربت القسطنطينية المسيحية) ، وإنما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج، والمحاربين، والتجار والقراصنة ، والنبلاء الجوعى للأرض، والمجرمين، وشذاذ الآفاق ... الذين اتخذوا من الشرق «العجيب» هدفا ومقصدا.

لقد كان الاستعمار الاستيطانى هو أبرز أهداف الحركة الصليبية. وحين تحقق هذا الهدف فرضت آثاره السلبية نتائجها على المنطقة العربية. وكانت أول إمارة صليبية شادها الغرب الكاثوليكى فوق الأرض العربية هى امارة الرها التى استولى عليها بلدوين Baldwin ليقيم بذلك شعار بيت أمراء اللورين بين نهرى دجلة والفرات. وفي سنة ١٠٩٨م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على انطاكية بفضل خيانة الأرمن .

وفى أنطاكية بدأ الافلاس الايديولوجى للحركة الصليبية يكشف عن نفسه فى وضوح . فحين توقف القتال تجسد هذا الافلاس فى بؤرة شريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التي امتدت خيوطها بين زعماء الصليبيين. وفى خضم الصراع تفرق الجيش الصليبى، وأخذ فرسانه يغيرون على المناطق الريفية المجاورة بهدف انتزاع أملاك خاصة لكل منهم(١). وإذ كانت المقاومة المحلية ضعيفة ، خضعت القرى والمناطق الريفية القريبة للصليبيين الذين استطابوا العيش فى هذه المنطقة، ونسوا هدفهم المعلن بتحرير بيت المقدس. ولكن ثورة الفقراء الذين كانوا ما يزالون يحلمون بتحقيق الحلم الذى حرك مسيرتهم الطويلة أجبرت القادة على أن يتحركوا صوب بيت المقدس.

١- عن نشاط الصليبيين فى المناطق المحيطة بأنطاكية انظر: ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، (تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١) ، ج٢ ص١٣٢ وما بعدها ؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق (مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨) ، ص١٣٤-١٣٥ ، عاشور الحركة الصليبية (الطبعة الثانية- مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١) ، ج١ ، ص١٩٢-١٩٤ انظر كذلك :

Raymon d' Agiles , RHC .; 5220, III, p. 245 .

وبعد عدة أحداث تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس فى نهاية الأمر. وقد أعقبت انتصار الصليبيين مذبحة شنيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة من أفراد الحامية المصرية الذين سلموا بشرط ضمان حياتهم ، فضلا عن سكانها من غير المحاربين. وبعد المذبحة الرهيبة توجه جودفرى البويونى يتبعه الصليبيون فى أعداد متزايدة ، بعد أن رووا ظمأهم من دماء ضحاياهم من النساء والأطفال وغير المتحاربين ، إلى الضريح المقدس. وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب ، وتفوح فيه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد المتناثرة ، كانت دموع الفرح تسيل على وجوه الصليبيين التى أرهقها القتل، وترددت فى جنبات كنيسة القيامة عبارة Te Deum Laudarmus (أى نحمدك يا الله) (١). وكما كانت عبارة «الرب يريدها» التى أطلقها الحاضرون فى مجمع كليرمون هى صيحة القتال الصليبية التى بدأت بها الحركة، كانت

١- Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitan-orum (the Deeds of the Franks and the other Pilgrims to Jerusalem), Edited by : Rosalind Hill, London 1962 , pp; 91-93, p. 102 .

عبارة «نحمدك يا الله» التى اطلقها الصليبيون فى الكنيسة المقدسة إعلانا ببداية الوجود الصليبى على الأرض العربية.

ونتيجة للنصر الذى أحرزته الحملة الصليبية الأولى قامت فوق الأرض العربية عاصمة مسيحية لمملكة لاتينية ، كما قامت عدة مستوطنات صليبية فى الرها، وأعالى النهرين، وانطاكية وسوريا وفلسطين فضلا عن بعض مناطق الشاطئ اللبنانى. وكان من الضرورى بالنسبة للفرنج أن يتم ربط هذه المراكز الاستيطانية المتناثرة حتى يمكن بناء كيان محكم البنيان يتميز بوحدة أراضيه . وفى بطء عنيد تحولت سيطرة الصليبيين على بعض المدن والمراكز المتباعدة إلى سيادة ثابتة على أقاليم متصلة أخذت فى التوسع على مدى جيلين كاملين لم يصادفوا أثناءها مقاومة جدية، أو محاولة عربية للتصدى لهم بسبب تخاذل الحكام العرب، والتمزق السياسى الذى كان ينشب مخالبه فى المنطقة العربية حين قدمت الجيوش الصليبية. ولم يكن انتصار الصليبيين تعبيرا حقيقيا عن موازين القوى، فقد كانت الجيوش العربية ، وموارد المنطقة الاقتصادية والبشرية تكفل هزيمة ساحقة للصليبيين إذا ما جمعتها جبهة موحدة (وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك)، ولكن

التشرذم العربى، بل ومساندة بعض المسلمين للجيوش الصليبية، وميراث الحقد والشك والضغائن بين حكام المنطقة جعل انتصار جيوش الصليبيين أمرا منطقيا.

وآثر عدد كبير من الصليبيين أن يبقوا في الشرق حيث كان عليهم تحمل مهام الادارة الاستعمارية الاستيطانية . ولأنهم كانوا أقل كثيرا فى عددهم من السكان الأصليين، فقد حاولوا قدر الطاقة أن يشجعوا الهجرة من أوربا إلى فلسطين لتدعيم وجودهم. وكان التجار والجنود والحجاج والمغامرون والمهاجرون يفدون من أوربا فى جماعات كبيرة أو صغيرة إلى المناطق الصليبية التى اعتبرها الفرنج وطنا ثانيا أو فرنسا ما وراء البحار Outremer. وفى بداية الأمر حاول بارونات الصليبيين وفرسانهم أن يحافظوا على ما نجحوا فى الاستيلاء عليه دون الاستعانة بالغرب الأوربى، ولكن جسدا غريبا لايمكن أن يعيش فى منطقة معادية دون أن يجد لنفسه السند من خارج المنطقة . وكان النموذج الصليبى تجسيداً لهذه الحقيقة فى الماضى، كما أن الكيان الصهيونى يجسدها حالياً وهكذا كان على أوربا أن تقوم بدور الظهير الذى يرعى الكيان الصليبى ويحميه باعتباره جزءا من الغرب يعيش تحت

سماء الشرق. وعلى ما يقرب من قرنين من الزمان كان الغرب يبعث برجاله ونسائه (وأطفاله أحيانا) لتدعيم الكيان الصليبى(١). ولكن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على الغرب الأوربى خلال القرنين

١- تمدنا المصادر العربية والمسيحية الغربية والشرقية بأمثلة لاحصر لها عن أفواج القادمين الجدد من أوربا، وهجومهم على المناطق العربية . انظر على سبيل المثال: ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص١٧٣ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج١، ص١٣٦ ، ص١٣٩ ، ص١٨١ ، ص٢٥٠- ٢٥١ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦-١٣٧ ، ص١٤١ ، ص٢٩٧ - ٢٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين، ص٥١ ، ص٥٢ ، ص٨٠ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب، ج١، ص١٤٠ ، المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص٧٥٤ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسنية، ص١٣٦ ، ص١٣٧ ، ص٢٣٦ . انظر كذلك متى الرهاوى .,RCH Doc Arm., I, p. 90 وميخائيل السوريانى .RCH., Doc. Arm I, pp. 327 - 329 . انظر بعض الدراسات الحديثة:

= Boase, T.S.R., Kingdoms and Strongholds of the Crusaders (London 1971) pp. 20-23, 31-32 ; Bradford , E., The Sword and the Scimiter the Saga of the Crusades, (London 1974) p. 107 ; Le Duc d Castries , la conquete de la Terre Sainte Par les croisées (Paris 1973), pp. 83- sp.

الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، جعلت حجم التأييد الأوربى الفعلى للكيان الصليبى يتقلص شيئا فشيئا. كما أن إساءة البابوية للفكرة الصليبية حتى استخدمتها لضرب خصومها السياسيين فى أوربا، ومن بينهم ملوك مسيحيون مخلصون للكنيسة ، جعل الناس لايحفلون كثيرا بمصير الكيان الصليبى. حقيقة أن الفكرة الصليبية لم تختف ، ولكن وسائل تحقيقها في نظر الاوربيين في أخريات العصور الوسطى كانت تختلف عن رؤية أسلافهم الذين دعموا الحملة الأولى وخرجوا فى صفوفها . لقد اختلفت مصالح ومفاهيم الظهير الأوربى مع مصالح ومفاهيم الكيان الصليبى فى الشرق بالقدر الذى سار بالصليبيين فى طريق النهاية المحتوم على أيدى المسلمين فى المنطقة العربية.

ولاشك فى أن المسلمين لم يكونوا ليدعون الصليبيين يهنأون بالمدينة المقدسة التى كانت بمثابة درة التاج وواسطة العقد لدى المسلمين والمسيحيين على السواء، كما أنهم لم يكونوا ليغضون الطرف عن وجود الكيان الصليبى فوق الأرض العربية. وعلى الرغم من تخاذل الحكام العرب فى الاتحاد لمواجهة الخطر الصليبى منذ البداية، فإن المصادر

التاريخية ، عربية ولاتينية وبيزنطية وأرمنية، تحدثنا عن أن الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين منذ وطأت أقدامهم الأرض العربية. ولكن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية، وقصر النظر فى المرحلة الأولى من الصرا ع بحيث توصل الكيان الصليبى إلى أقصى اتسا ع له خلال جيلين. وقد شهدت السنوات الخمسون التى أعقبت قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية حركة توسع صليبية فى كل اتجاه، كما شهدت عجز الدول والامارات الاسلامية المطلق عن التعاون فى خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين. وبين الحين والحين كانت القوى الاسلامية تعقد بعض الاتفاقات فيما بينها بقصد العمل المشترك، بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت لاتلبث أن تنفصم عراها بنفس السرعة التى تمت بها نتيجة لميراث الشك المتبادل بين الحكام فى المنطقة العربية والحرص على المصالح الذاتية بالقدر الذى جعل البعض يتحالف مع العدو الصليبى.

وعلى الرغم من أن الفشل السياسى فى توحيد الجهود العربية إزاء الخطر الصليبى كان يؤدى بدوره إلى مزيد من الاخفاقات العسكرية ، فإن الرأى العام الإسلامى بدأ يضغط

بكل قواه على الحكام. لقد كان الحكام شيئا يختلف تمام الاختلاف عن الناس ، ولأن الحكام اهتموا بكراسيهم ومصالحهم الذاتية، فقد كان تخاذلهم سريعًا أما الناس ، أصحاب المصلحة الحقيقية ، فقد اختاروا الطريق الصعب والمضمون وهو طريق المقاومة الذى أدى فى النهاية إلى إفراز قيادات من نوع جديد يضعون أنفسهم فى خدمة أهداف الأمة؛ مثل عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى. وحين فشل محور القاهرة- دمشق فى التصدى للعدوان الصليبى نتيجة لأحوال الدولة الفاطمية المتدهورة، وأحوال حكام دمشق الذين قنعوا بالتعايش مع الفرنج، بدأ يظهر فى الأفق دليل على أن شيئا ما قد أخذ يتغير فى المعسكر الإسلامى . وجاء هذا التغيير من بين جماهير المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبى من جهة ، وفشل القيادات الحاكمة من جهة أخرى. فقد أثارت أعداد اللاجئين التى تدفقت من بلاد الشام إلى سائر بلاد المنطقة العربية مشاعر الغضب الاستياء ضد الحكام . وفى البداية عبر الناس عن مشاعرهم الغاضبة فى المساجد، ومن فوق المنابر فى صلاة الجمعة، وبدأت الدعوة إلى الجهاد

تسرى في أوصال العالم الإسلامى، وسرعان ما تحولت إلى حركة شعبية ضاغطة يقودها المفكرون وأصحاب الرأى، وسطرت الكتب ودبجت الرسائل التى تتحدث عن الجهاد وفضل المجاهدين وعن مكانة بيت المقدس وأهميتها بالنسبة للمسلمين. وفى ظل هذه الحركة تكون رأى عام قوى وضاغط بحيث لم يعد فى وسع الحكام أن يتجاهلوه ، وقيض لهذه الحركة أن توجه مجرى الأحداث على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان.

وفى ظل هذا البعث الفكرى، ظهر عماد الدين زنكى ليقود حركة المقاومة العربية ضد الصليبيين على محور جديد محور الموصل- حلب، بدلا من محور القاهرة - دمشق الذى أثبت فشله بسبب الضعف والتفكك الداخلى فى مصر والشام آنذاك- وأخضع عماد الدين زنكى المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب لسلطانه، وما لبث أن صار هو أقوى حاكم إسلامى فى زمانه لأنه طوع قوته وسلطانه فى خدمة المطلب الشعبى العام: أى الجهاد ضد الفرنج. فقد قامت المدارس، والعلماء والمتدينون بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الحكام فى الشام ومصر المواجهة المباشرة للتحدى

الذى فرضه الوجود الصليبى ، وشيئا فشيئا نجح عماد الدين زنكى فى التغلب على الثغرات الإنعزالية فى كل من الشام والعراق. وفى سنة ١١٤٤ ميلادية شن هجوما ناجحا على الرها واستردها لتكون بذلك أول إمارة صليبية على تراب الشرق العربى تسقط فى أيدى المسلمين. وفى سنة ١١٤٦ قام الصليبيون بمحاولة فاشلة لاستعادتها ، ولكن نور الدين محمود خليفة زنكى ووريثه قضى على المحاولة ، ومن ثم انتهى الضغط الصليبى على مناطق أعالى الفرات.

ولكن نور الدين لم يكن ليقدر على شن هجوم حاسم على الصليبيين لأن سيطرته على محور الموصل/ حلب لم تكن قد رسخت بعد ، كما أن خروج محور القاهرة/ دمشق عن نطاق سيطرته كان عاملا سلبيا فى حسابات القوة . إذ كان حكام دمشق عقبة كؤودا فى طريق توحيد الجبهة الاسلامية، فقد كانت دمشق قد توصلت إلى حال من التعايش السلمى مع الفرنج، لدرجة أن حكامها استنجدوا عدة مرات بالصليبيين فى مواجهة قوات الزنكيين. ومن ناحية أخرى لم يكن نور الدين يستطيع أن يهاجم المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره إمارة دمشق التى لايثق بحكامها فضلا عن أن مصر ،

بمواردها البشرية والاقتصادية الهائلة، كانت ضرورية لضمان النصر فى الصراع المرتقب. وجاء الحل السعيد على أيدى زعماء الحملة الصليبية الثانية التى جاءت كرد فعل أوربى إزاء سقوط الرها فى أيدى المسلمين. فبدلا من أن يحاول صليبيو الحملة الثانية استعادة الرها، إذا بهم يشنون هجمة خرقاء على دمشق. ولكن هذه الحماقة انتهت بفشلهم فى دخول المدينة، وبمجموعة من الاتهامات التى وجهها قادة الحملة الصليبية الثانية إلى المستوطنين الصليبيين بقبول الرشوة لإحباط الحصار حول دمشق. ولكن النتيجة الرئيسية لهذه الحملة تمثلت فى ارتماء دمشق فى يدى نور الدين المفتوحتين سنة ١١٥١م.

هكذا تم توحيد الجبهة الشمالية ، وتم حشد كافة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية لدعم هذه الجبهة. وبسبب تماسك الجبهة الشمالية وصلابتها اتجه الصليبيون جنوبا حيث كانت الظروف ملائمة لتحركهم . كانت مصر الفاطمية آنذاك بمثابة «الرجل المريض» على ضفاف النيل حيث كانت الخلافة الفاطمية عارية سوى من بعض ظلال قوتها السابقة. فقد انهكتها الكوارث الطبيعية والخلافات الداخلية، وتوالى

تغير الوزراء الذين كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقيين فى إيقاع سريع من الفتن والاضطرابات بغية الوصول إلى كرسى الحكم. وقد أدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى ازدياد منحنى التدهور فى قوة الدولة بشكل أغرى جيرانها على الطمع فيها. وكانت مصر بمواردها الهائلة كفيلة بترجيح كفة من يمكنه الاستيلاء عليها، أو ضمها فى الصراع الدائر بين نور الدين محمود والصليبيين. وفى سنة ١١٥٠ هاجم الصليبيون غزة فى إشارة واضحة لاتجاهم ضد مصر، ثم سقطت عسقلان آخر المعاقل المصرية فى فلسطين سنة ١١٥٣ . وحين هاجم الصليبين العريش سنة ١١٦١م كان ذلك تعبيرا عن اختلال موازين القوى على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين، ذلك أن أهم نتائج ذلك الهجوم كانت هى الإتاوة السنوية التى تعين على مصر أن تدفعها للصليبيين.

وأخيرا حانت فرصة التدخل الصليبى والوصول إلى القاهرة، دونما معارك ، بسبب النزاع بين شاور وضرغام، فقد لجأ أحد الوزيرين المتنافسين إلى طلب مساعدة أماريك Amalric (عمورى) ملك بيت المقدس ، على حين لجأ الثانى إلى الاستنجاد بنور الدين. وخلال السنوات الست التالية غزا

الصليبيون مصر خمس مرات. وكانت هذه فرصة رائعة للصليبيين الذين كانوا ينشدون وقف الخطر المصرى، إما بغزو مصر وضمها لأملاكهم، وإما بعقد معاهدة مع المصريين لتحييدهم. ومن ناحية أخرى، أبدى البيزنطيون استعدادهم لمعاونة الصليبيين ضد مصر ، ولكن الصليبيين كانوا يثقون فى قدرتهم على تحقيق النصر دون مساعدة ، كما كان يحدوهم الأمل فى أن ينفردوا بثماره[1]. وحين قدمت قوات الصليبيين إلى مصر لنصرة أحد الوزيرين المتنافسين، قدمت قوات نور الدين محمود لنصرة الوزير الآخر.

كان هذا هو السبب المعلن ، ولكن الحقيقة أن كلا من الطرفين كان يسعى إلى ضم مصر . وإذا كان الصليبيون قد طمعوا فى ضم مصر أو تحييدها ضمانا لكسر الجبهة

١- Matthieu d'Edesse, RHC. , Arm ., I , pp. 118 sq.; Michel le =Syrien , RHC., Arm., 1, pp. 346 sq ., 359-362 .

انظر أيضا : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر (القاهرة ١٩٦١م) ، ص١٢ وما بعدها، يوشع براور، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعقيب، قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، ، دار المعارف ١٩٨١)، ص٧٢- ص٧٣ .

العربية، فلاشك فى أن نور الدين محمود قد أدرك أنه لن يستطيع توحيد الجبهة العربية دون مصر، وأن ضمها هو السبيل الوحيد لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين . ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والصليبيين، واختارت جماهير الناس فى مصر أن تقف مع القوات العربية الاسلامية بطبيعة الحال، واضطر الصليبيون إلى الانسحاب فى نهاية المطاف - ولكن الاستيلاء على مصر ظل سرابا يجذبهم تجاهه بين الحين والحين.

هذه الحملات الصليبية الفاشلة ضد مصر أدت إلى نتيجتين غاية فى الأهمية فقد تسببت فى تقلص الموارد البشرية والمادية للمملكة اللاتينية من ناحية، كما أدت إلى تغيير الخريطة السياسية لصالح القوى العربية من ناحية أخرى. فقد صار أسد الدين شيركوه وزيرا لمصر ، وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف (الأيوبى) ، ثم اختفت الخلافة الفاطمية من الوجود سنة ١١٧١م، وعادت مصر سنية من جديد. ولكن توحيد الجبهة الاسلامية لم يتحقق سوى بعد وفاة نور الدين محمود وسيطرة قوات صلاح الدين على الشام والعراق، وكانت آخر مرحلة من

مراحل بناء الجبهة الاسلامية المتحدة هى الاستيلاء على حلب سنة ١١٨٣م ، وبعدها بدأ صلاح يدعم قوته استعدادا للمواجهة الشاملة مع الصليبيين.

وفى تلك الأثناء قام الصليبيون بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء، ووصلوا حتى بحيرات منطقة السويس (بالبردويل حاليا) ، كما شنوا غارات أخرى على تيماء فى شمال شبه الجزيرة العربية. وحاول رينو دى شاتيون Renaud de Cha-tillon (الذى عرفته المصادر العربية باسم أرناط)، أمير الكرك، أن يقتحم البحر الأحمر، ويغزو مكة والمدينة، وأن يتحكم فى حركة التجارة الدولية بين آسيا ومصر والتى تمر عن طريق هذا البحر من خلال باب المندب . وبالفعل هاجم بعض الموانئ المصرية والحجازية ، ثم تمكنت سفن الاسطول المصرى من سحق أسطوله تماما(١).

وأخيرا ، بدأ صلاح الدين عملياته ضد الصليبيين، وكانت قمة انتصارات هذا القائد الاسلامى وجيوشه فى معركة

١- عن العمليات التى قام بها أرناط فى البحر الأحمر وهزيمته، أنظر: العماد الكاتب الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، (تحقيق الدكتورة فتحية النبراوى، مكتبة الخانجى ١٩٧٩م) ، ص٢١٢-٢١٣ .

حطين فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / ٤ يوليو سنة ١١٨٧م . لقد كانت هذه المعركة الحاسمة نقطة انعطاف مهمة فى تاريخ المواجهة العربية / الصليبية، وكانت قيمتها الأساسية تتمثل فى أنها أول تجسيد للجبهة العربية المتحدة، ففى أول مواجهة بين العرب بعد اتحادهم وبين الصليبيين، خسر الصليبيون معظم ما كانوا قد استولوا عليه نتيجة التشتت والتفكك العربى، وتقلصت المساحة الصليبية على خريطة فلسطين إلى حد كبير. لقد كانت المعركة التى جرت بين المسلمين والصليبيين فى حطين كارثة عسكرية ونذير شؤم للكيان الصليبى، كما كانت بارقة أمل للمسلمين نفخت فى روحهم من جديد [1]. أما ما حدث بعد هزيمة الصليبيين

١- عن هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ المواجهة ضد الصليبيين ألفت بعض الكتب العربية على يد بعض المعاصرين من شهود العيان، أشهرها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين ، وهى من تأليف بهاء الدين بن شداد الذى كان شاهد عيان. بحكم كونه من أقرب مساعدى صلاح الدين. وقد قام على نشرها وتحقيقها الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٦٤م كذلك كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الكاتب الأصفهانى الذى كان من المقربين إلى صلاح الدين وشهد معاركه بنفسه، وقد حقق الكتاب ونشره محمد محمود صبح سنة ١٩٦٥م. كما أن المؤرخ نفسه هو الذى كتب سنا البرق الشامى الذى أشرنا إليه من قبل .

فى حطين فكان أشبه باستعراض عسكرى منه بالحرب ، فقد أخذت المدن والحصون تفتح أبوابها تباعا أمام جيوش صلاح الدين، وفى أكتوبر من سنة ١١٨٧م، أي بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة اللاتينية عادت بيت المقدس مدينة إسلامية مرة أخرى . ولم يتبق بأيدى الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس... وبعض القلاع المتناثرة.

وجاء رد الفعل الأوربى تجاه سقوط بيت المقدس وغيرها من القلاع الصليبية متمثلا فى الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا هم، فردريك بربروسا ملك ألمانيا الذى قاد القوات الألمانية وهو فى السبعين من عمره ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا الخادع وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا . وغرق بربروسا حين نزل ليستحم وهو فى الطريق فى أحد الأنهار الصغيرة بآسيا الصغرى، وانتهى الأمر بمشاركة الألمان فى الحملة بصورة رمزية. وسرعان ما ظهر أن فيليب أوغسطس المستخف الماجن لايريد سوى التظاهر بقتال المسلمين لأنه كان تواقا للعودة إلى وطنه لكى يواصل نسج مكائده ضد الملك الإنجليزى (١). أما ريتشارد فقد أخذ

1- Cantor, Medieval History, pp. 328-329 .

الحملة بجدية شديدة، ومع ذلك فإن الحملة لم تنجح سوى فى استرداد عكا بعد معارك مضنية وعنيفة. لقد كشفت الحملة الثالثة عن أن اهتمام ملوك أوربا وحكامها بمصير الصليبيين فى الشرق قد بدأ يتراجع أمام اهتمامهم برعاية مصالحهم الأسرية والاقليمية، وهو تيار أخذ يشتد بحيث لم يكن معظم حكام أوربا يقدمون للحركة الصليبية ما هو أكثر من الدعم الهامشى.

انتهت معارك الحملة الثالثة بعقد هدنة بين صلاح الدين وريتشارد سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م . هى التى عرفت باسم «صلح الرملة» ، وكانت بنود هذا الصلح تكريساً لحقائق توازن القوى على الأرض، ولم تحقق الحملة الصليبية الثالثة شيئا يذكر للفرنج. وبعدها عاد ريتشارد إلى بلاده. وبعد الهدنة بسنوات ثلاث توفى صلاح الدين وبوفاته تفسخت دولته بسهولة وسرعة. فقد كان هذا الرجل الفذ هو الذى يحفظ الدولة من التفسخ ، ولم يكن هناك مبدأ سياسى متوارث ، أو نظام داخلى متناسق يشد أطراف مملكته الواسعة الى بعضها. وسرعان ما ساد التوتر بين الورثة من أبناء البيت الأيوبى، وهو أمر كانت نتيجته الحتمية أن تمتعت المملكة

اللاتينية على أرض الشام بالسلام لفترة تقرب من عشر سنوات.

كان واضحا أن قواتس الصليبيين لم تكن ندا للمسلمين ، ومن ثم انعقد أمل المملكة الصليبية على قدوم حملة جديدة من أوربا تفتح لهم مجالا للتوسع. وإذ خيبت الحملة الصليبية الرابعة آمال المستوطنين اللاتين في الشرق العربى باتجاهها إلى القسطنطينية واستولت على الامبراطورية البيزنطية كلها سنة ١٢٠٤م . ثم توجهت مجموعة ضئيلة من جنود هذه الحملة إلى فلسطين لتنضم إلى سكان ما بقى من الكيان الصليبى ، وبعد عدة تقلبات جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة لكى تفتح فصلا جديد فى تاريخ الوجود الصليبى إذ كان الهدف الأساسى لهذه الحملة هو مصر، فقد كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط فى دلتا النيل بدلا من ضفاف الأردن. وأهم هذه الأسباب الرغبة الجامحة من جانب المدن الإيطالية التجارية . (الممول الرئيسى لهذه الحملة) فى السيطرة على السوق التجارية أما السبب الثانى فكان نابعا من المذهب السياسى العسكرى للصليبيين ، والذى كان يرى فى القضاء على مصر، أو تحييدها على

الأقل، ضمانا للوجود الاستعمارى الاستيطانى الصليبى . حقا لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر ، أو ضمها للأملاك اللاتينية فى الشرق، ولكن بينما كان هدف حملات أماريك (عمورى) فى القرن الثانى عشر تهدف إلى ضم مصر أو تحويلها إلى دولة تابعة لملكة بيت المقدس، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد الشرف العسكرى والهيبة اللذين فقدهما الصليبيون فوق تراب حطين. وكان فى ظن الصليبيين أن تحقيق انتصار ضخم على مصر سوف يضمن خضوعها ، ويجبرها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط عودة المملكة الصليبية إلى حدودها القديمة... ولكن الحملة انتهت بالفشل، واضطر اللاتين إلى التخلى عن أحلامهم ثمنا لحريتهم.

وعلى الرغم من كل شئ تجمعت حملة جديدة بقيادة فردريك الثانى الذى كان يحمل لقب ملك بيت المقدس بعد زواجه من إيزابيلا ابنة حنا برين. ولكن فردريك كان صقليا أولا وأخيرا، وما ما يعنى أن الاسلام بالنسبة له لم يكن مجرد كتاب مغلق ، فضلا عن أن المسلمين فى نظره لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الفناء. ولهذا كانت تصرفاته إزاءهم

تختلف عن تصرفات من سبقوه. وقد نجح فردريك، بفضل المشاكل التى كان السلطان الكامل الأيوبى يواجهها فى مصر والشام، فى عقد اتفاقية مع هذا السلطان كان من أهم شروطها عودة القدس إلى الصليبيين. ومن حسن حظ الصليبيين فى تلك الفترة أن تمزقت الجبهة العربية الإسلامية من جديد. ففي الوقت نفسه كانت طبول الحرب التترية يتردد صداها فى المنطقة، وأخذت جحافل التتر الظالمة تطوى بلدان العالم الإسلامى فى الشرق ، واقتربت قعقعة حوافر الخيول التترية من منطقة الشرق العربى فى وقت تحالف فيه الصليبيون والأيوبيون فى دمشق ضد الأيوبيين فى مصر. واستعان المصريون بالخوارزمية الذين كانوا يبيعون سيوفهم لخدمة حكام الشرق الاسلامى بعد أن قضى المغول على دولتهم فى المناطق القريبة من البحر الأسود. وفى المعركة التى دارت بالقرب من غزة لقي اللاتين هزيمة قاسية على أيدى المصريين والخوارزميين. واستعاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٤م لتظل مدينة عربية حتى استولى عليها العدو الصهيونى فى العصر الحديث.

كانت آخر حملة صليبية كبرى هي تلك التى قادها لويس

التاسع ملك فرنسا ضد مصر سنة ١٢٤٨م . وانتهت بكارثة راح ضحيتها الجيش الصليبى عن بكرة أبيه، وتم أسر الملك لويس نفسه فى دار ابن لقمان بالمنصورة. واضطر شراذم الصليبيين إلى الرحيل لقاء فدية كبيرة لملكهم وأسراهم العديدين بلغت حوالى مليون قطعة ذهبية . ومنذ ذلك الحين أصمت أوربا آذانها أمام كل نداء جاءها من الصليبيين فى الشرق طلبا للمساعدة.

وفى تلك الأثناء ولدت سلطنة للماليك فى مصر والشام لتكون القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى. وفى رأينا أن هذه السلطنة العسكرية الطابع كانت هى الافراز السياسى الكبير للحروب الصليبية. وإذا كان البعض يعتبر أن «شجر الدر» هى أول سلاطين المماليك، فإن الظاهر بيبرس البندقدارى كان هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة [١].

١- عن ظروف نشأة دولة سلاطين المماليك وطبيعتها العسكرية انظر: قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى- عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩)، ص٩- ص٣١ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية (دار المعارف ١٩٦٧) ، ص١٧١-١٧٥ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام (اطبعة الثانية، دار النهضة العربية ١٩٧٦) ص١-٤٦ .

فبعد القضاء على الخطر المغولى فى بلاد الشام أحاط المصريون ببقايا المستوطنات الصليبية من كل اتجاه. ولم يعد بوسع أوربا أن تقدم شيئا لمساعدة المستوطنين الصليبيين فى المنطقة العربية. ذلك أن مشكلات الحكم والاقتصاد والثقافة الأوربية امتصت طاقات الأوربيين، وما تبقى من هذه الطاقة لمؤازرة الحركة الصليبية وجهته البابوية ضد أعدائها وخصومها السياسيين داخل القارة الأوربية نفسها (١). وأخذ الوجود الصليبى يتلاشى رويدا رويدا تحت وقع الضربات الاسلامية، فتم الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٨٦م، وطرابلس ١٢٨٩م، ثم سقطت عكا آخر المعاقل الصليبية سنة ١٢٩١م. وفى أغسطس من العام نفسه هجر الفرسان الداوية قلعة الحج التى كانت أعظم القلاع الصليبية. وكان هذا هو فصل الختام بالنسبة للعدوان الصليبى الاستيطانى على الأرض العربية. وإن لم يكن نهاية للعدوان الذى استمر فى

١- عن تحول المثال الصليبى إلى سلاح سياسى استغلته البابوية لخدمة أغراضها ومحاربة أعدائها السياسيين فى أوربا (مثل الحملة ضد الألبيجنسيين، والحملة ضد ملك أرغونة، والحملات الصليبية ضد فردريك الثانى)، انظر:

Cantor , op. cit., pp. 330-331 .

آخريات العصور الوسطى انطلاقا من قواعد الصليبيين فى قبرص ورودس حتى قضى سلاطين المماليك عليهم فى القرن الخامس عشر .

هذه هى الخطوط العريضة للمواجهة الطويلة المضنية بين شعوب المنطقة العربية والعدوان الصليبى. وقد انتهت هذه المواجهة الطويلة بانتصار العالم العربى فى تلك الحروب والمواجهة الحضارية . والحقيقة أن الحوادث والأفكار المتداخلة المتشابكة التى أدت إلى ميلاد الحركة الصليبية، كظاهرة تاريخية، وما طرحه المؤرخون من تفسيرات لأسباب هذه الحروب والعوامل والدوافع التى حركت أحداثها ، ثم ما نتج عن هذه الحروب من آثار تركت بصماتها على العالم العربى والغرب الأوربى- هذه كلها تضع أمام المهتمين بتاريخ العلاقات الدولية مثالا فذًا لدراسة الثوابت والمتغيرات فى العلاقات الدولية من ناحية ، كما تقدم لنا نموذجا فريدا لدراسة ظاهرة الاحتلال الاستيطانى وما يختص منها بمحاولة زرع كيان استيطانى عدوانى فى محيط حضارى وبشرى مختلف. إذ إن دراسة الحركة الصليبية تكشف عن أهم مقومات النجاح لمثل هذا الكيان ، كما توضح من ناحية

أخرى أهم عوامل الفشل والاخفاق . ذلك أن التفكك والتشرذم بين شعوب المنطقة يعتبر من أهم عوامل النجاح ، الذى حققه الفرج والعكس صحيح تماما، فالوحدة العربية كانت من أهم أسباب فشل الكيان الغريب. كما أن توازى مصالح الكيان الاستيطانى مع مصالح الظهير الحضارى والبشرى المساند له عنصر آخر حاسم فى دعم وجوده ، ثم تأتى عوامل أخرى مثل الاعتماد على القوة العسكرية الرادعة وامكانيات النمو الذاتى التى تلعب دورا غاية فى الضآلة بسبب طبيعة مثل هذا الكيان. ومع ذلك فإن التغيرات الدائمة فى حركة العلاقات الدولية يمكن أن يؤدى إلى عدم توازى مصالح كل من الكيان الاستيطانى والظهير المساند، كما أن القوة العسكرية يزول تأثيرها باتحاد شعوب المنطقة مما يجعل قوتهم العسكرية أكثر تفوقا. أما امكانيات النمو الذاتى، فأمر قد يبدو مستحيلا فى حالة عدم تحول شعوب المنطقة إلى توابع اقتصادية للكيان الدخيل.

ولعل المشروعات التى تطرحها الدوائر الصهيونية والأمريكية من حين لآخر لتمويل شعوب المنطقة العربية إلى توابع تدور فى فلك الكيان الصهيونى، والتشبث بإبقاء العالم

العربى سوقا مفتوحة أمام بضائع الرأسمالية العالمية، فضلاً عن الاستحواذ المباشر، وغير المباشر، على القدرات والموارد الاقتصادية للمنطقة العربية، وأهمها البترول، والسيطرة على القرار السياسى لحكام المنطقة- كل هذا، فى تصورنا، ناجم عن القراءة الصهيونية الواعية لتاريخ الحركة الصليبية بشكل خاص، والتاريخ العربى بشكل عام.

احتلت قصة الحروب الصليبية حيزا كبيرا من اهتمامات المؤرخين والباحثين. ومنذ بداية الحركة الصليبية حتى الآن ، ما تزال الدراسات هذه الظاهرة التاريخية تتوالى بكثرة وتنوع مثير. وقد ساهم المسلمون والمسيحيون واليهود فى هذه الدراسات . وبينما يبدو اهتمام كل من المسلمين والمسيحيين بالموضوع منطقيا، يثير الموقف اليهودي من الحروب الصليبية عديدا من علامات الاستفهام. وهذا هو موضوع الفصل الثانى.

الفصل الثانى

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية

مدخل - أبعاد الموقف اليهودى من الحروب الصليبية- حقيقة الاضطهادات الصليبية لليهود وعلاقتها بحركة معاداة السامية- محاولة سرقة التاريخ العربى- دراسة أسباب الفشل الصليبى.

منذ بدأت أحداث الحروب الصليبية، بدأ المؤرخون يكتبون عنها، ولم يتوقفوا عن الكتابة حتى الآن. فقد انكب عشرات من المؤرخين والباحثين يفتشون بين غبار المعارك وأشلاء الضحايا، وأنات الجرحى وزفرات المهزومين ... بين صليل السيوف وصيحات النصر، عن أجزاء الصورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ. وأخرجت أقلام النساخين وآلات الطباعة سيلا من المؤلفات والدراسات تدور جميعها حول موضوع واحد هو«الحروب الصليبية».

لقد اهتم الغرب الأوربي والأمريكى بقصة هذه الحروب التى اتخذت الصليبي شعارا ، والقدس هدفا . وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتصوره حتى بمقاييس العصور الوسطى التى اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الانسانية فى الحروب. وعلى الرغم من أن كثيرين فى الغرب قد أدانوا الحروب الصليبية، فإن هذه الإدانة فى رأينا نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية فشلت فى أن تحقق شيئا على الرغم من أن فصولها الرئيسية قد دارت على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان. ومع ذلك فإن بعض أولئك الباحثين يرى أن الأراضى التى استهدفتها الحروب الصليبية حق للمسيحيين الكاثوليك فى الغرب الأوربى، وأن الصليبيين قد فشلوا فى استردادها. بيد أن هذا لاينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلوا البحث العلمى والتعرف علي الحقيقة، أيا كانت، هدفا ينبغى الوصول إليه.

أما فى المنطقة العربية الإسلامية، فإن الدراسات الحقيقية لهذه الحركة ما تزال قليلة حقا. وعلى الرغم من محاولات قليلة جيدة قام بها بعض الباحثين من أساتذة الجيل السابق، فإن محاولات جيلنا فى هذا الصدد ما تزال قاصرة عن الوفاء بما

تتطلبه هذه الظاهرة من دراسة وتحليل . وعلى الرغم من أننا كطرف وقع عليه العدوان الصليبى، ينبغى أن نوفى الظاهرة حقها من الدراسة والتأمل العلمى ، فإن معظم المؤلفات العربية توقفت عند حد رواية الأحداث العسكرية والسياسية بطريقة سردية، كما لجأ البعض إلى الدراسة الانتقائية بهدف دغدغة مشاعر الفخر والزهو الكاذبة فى نفوسنا .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية كانت فى أساسها مواجهة بين المسلمين والمسيحيين، فإن المؤرخين والباحثين اليهود قد اتخذوا لأنفسهم موقفا من الحروب الصليبية يمكن القول بأنه موقف مختلف عن موقف كل من المسلمين والمسيحيين. فاليهود لم يكونوا طرفا أساسيا فى هذه المواجهة العسكرية/ الحضارية الطويلة، ومن ثم فإنه لايمكن القول بأن لهم انحيازا إلى جانب أحد الطرفين المتصارعين. بيد أن الموقف اليهودى من الحروب الصليبية يخدم الأهداف الصهيونية الأساسية من عدة جوانب، فهو تعبير عن الاتجاه الصهيونى العام الذى يخلق مجموعة من الأكاذيب التاريخية ويروج لها لتحقيق مكاسب جديدة للحركة الصهيونية. وتحاول «القراءة الصهيونية » لتاريخ الحركة الصليبية توظيف هذه

الظاهرة التاريخية لصالح الكيان الصهيونى من جوانب عديدة تستغل الإنحياز العاطفى لدى الغرب الأوربى والأمريكى، والتراجع العربى على كافة المستويات. هذا الموقف اليهودى من الحروب الصليبية يتخذ مسارات أساسية ثلاثة:

أولا:

محاولة تصوير الاضطهادات التى أوقعها الصليبيون باليهود فى أوربا الغربية على أنها حلقة ضمن سلسلة الظاهرة التي أطلقوا عليها معاداة السامية Antisem-tism وهى ظاهرة اختلقوها ورجوا لها ليبتزوا بها ضمير العالم.بل إنهم يوحون إلى جماهير العامة فى شتى أراء الدنيا بأنهم ، وحدهم الساميون، وهى كذبة تدحضها حقائق العلم على أية حال.

ثانيا :

محاولة سرقة التاريخ العربى فى فلسطين والمنطقة العربية من خلال اختلاق دور تاريخى لليهود فى التصدى للعدوان الصليبى بشكل يوحى أن اليهود أصحاب الأرض وأنهم تعرضوا للعدوان ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب، وهو

أمر يحاولون به تأكيد حق اليهود التاريخى المزعوم فى الأرض العربية. التى سرقوها . ومثلما حاولوا اختلاق «اسرائيل القديمة » من خلال الأساطير التى روجوها ، فإنهم يحاولون خلق استمرار تاريخى مزعوم لهذه الـ «إسرائيل» فى فترات التاريخ المختلفة

ثالثا :

دراسة الكيان الصليبى، مع التركيز على المشكلات الأساسية التى أدت إلى فشله ككيان دخيل ، ودراسة إمكانيات النجاح للكيان الصهيونى المشابه، مع مراعاة الثوابت والمتغيرات فى الحركة التاريخية من ناحية ، والعلاقات الدولية من ناحية أخرى.

ولابد هنا من الإشارة إلى حقيقة تاريخية مهمة ؛ وهى أن اليهود أتباع دين وليسوا أمة ، وأن اليهودية ديانة وليست قومية . ومن ثم، فإن الحديث عن «التاريخ اليهودى» و«الثقافة اليهودية» يظل أوهامًا تروجها الصهيونية.

وبطبيعة الحال، فإن الموقف اليهودى من الحروب الصليبية

لايستمد تياره من هذه الروافد الأساسية الثلاثة فقط، وإنما هناك روافد أخرى أقل أهمية تصب فى التيار العام لهذا الموقف. هذه الروافد تختلف بدرجة أو بأخرى بحسب الرؤية الشخصية والخلفية الثقافية الذاتية لكل من الذين تصدوا بالدراسة والبحث فى هذا الموضوع، فهناك من يهتم ببعض الإسقاطات المعاصرة على الكيان الاسرائيلى فى مسائل الأمن والعلاقة بالدول المجاورة ، وهناك أيضا من يهتم بالترويج لبعض الأكاذيب التاريخية مثل عدم قدرة المصريين على القتال. ومن يحاول النيل من أبطال التاريخ العربى الإسلامى فى فترة الحروب الصليبية بالتقليل من شأن عبقريتهم العسكرية والتاريخية، مثلما تحدث البعض عن صلاح الدين الأيوبى... هذه كلها وأمور أخرى فرعية هى التى تميز باحثا يهوديا عن غيره، بيد أنهم جميعا يصبون فى الروافد الثلاثة التى تصنع الموقف اليهودى العام من الحروب الصليبية.

وفيما يتعلق بالموضوع الأول، أى الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا، فالواضح أن المؤرخين اليهود يفضلون عادة أن يناقشوا موقف الصليبيين من يهود أوربا فى اطار

الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية[1] . وهنا ينبغى أن نناقش هذه المسألة لنتبين حقيقةهذه الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا إبان أحداث الحركة الصليبية[2].

١- أنظر على سبيل المثال:
Leon Poliakov, The History of Antisemitism (trans from French by : R. Howard) New York 1974 ; Alan Davies , Antisemitism and the Christian mind , New York 1969 ; Alexander M. Shapiro, " Jews and Christian in the period of the Crusades- A commentary on the first Holocaust" , Journal of Ecumencai Studies, Temple University 1972, vol . 9, pp. 725-749 .

والحقيقة أن الظاهرة لاتقتصر على اليهود فقط، وإنما هناك بعض المؤلفين المسيحيين الذين كتبوا فصولا عن معاداة السامية خاصة بالموقف الصليبى من اليهود ، أنظر :

J. Parkes, The Conflict of the Church and the Syna gogue- A Study in the origins of Antisemetism , Athenuem 1969 .

أنظر كذلك ما كتبه الدكتور محمد خليفة حسن فى كتاب عالم الصليبيين ، التعقيب ، ص٢٤٧ وما بعدها .

٢- عالج الباحث هذا الموضوع تفصيلا تحت عنوان «الاضطهاد الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية : الظاهرة ومغزاها »، انظر: ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط، الموسم الأول ١٩٨١-١٩٨٢ (تحرير د. قاسم عبده قاسم ودكتور رأفت عبد الحميد) دار المعارف ١٩٨٢م.

كانت المستعمرات اليهودية قد قامت منذ عدة قرون علي طول الطرق التجارية فى غرب أوربا، وكان سكان هذه المستعمرات من اليهود السفارديم الذين نزح أجدادهم من عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى الباكرة. وكان هؤلاء على علاقة بأبناء دينهم القاطنين فى أرجاء الامبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامى مما أعانهم على القيام بدور مهم فى التجارة العالمية فى تلك العصور حين تسببت الغزوات الجرمانية، وتدهور اقتصاديات غرب أوربا فى اختفاء التجار من غير اليهود من هذه المناطق . ومن ناحية أخرى قام أولئك اليهود بانشاء بيوت لإقراض الأموال فى شتى أنحاء الغرب الأوربى، والواقع أنها لم تكن أكثر من أماكن السكنى والاقامة التى عاش فيها المرابون اليهود. وكان الحكام العلمانيون ، وكبار الأساقفة ، والأساقفة يظلون هؤلاء اليهود بحمايتهم لقاء ما يقدمونه لهم من أموال.

ولكن الفلاحين والفقراء من سكان المدن الناشئة، والذين تزايدت حاجتهم للمال بسبب التطور الاقتصادى فى غرب أوربا، والذى جعل الاقتصاد النقدى يحل تدريجيا محل الاقتصاد الطبيعى القائم على المقايضة الذى عرفته العصور

الوسطى الباكرة ، كانوا يتورطون باطراد فى ديونهم للمرابين اليهود بالقدر الذى جعلهم يشعرون بالسخط تجاه أولئك المرابين الذين كانوا يفرضون على عملائهم أرباحا باهظة ، وصلت أحيانا إلى خمسين بالمائة من قيمة الدين. وخلال القرن الحادى عشر تصاعدت مشاعر العداء تجاه اليهود نظرا لأن عدد من يقترضون المال منهم قد تزايدوا، كما جاءت الحركة الصليبية وما صاحبها من تطرف دينى، وهوس أخروى لتصب مزيدا من السخط على نيران الكراهية ضد اليهود (١). لقد كان الأساس الفكرى للحركة الصليبية هو العداء «للآخر» سواء أكان هذا «الآخر» مسلما أو مسيحياً شرقياً أو يهودياً ومن ناحية أخرى كان تجهيز الفارس فى العصور الوسطى يتطلب نفقات كثيرة وإذا لم يكن لديه الأرض أو الممتلكات التى يستطيع رهنها ، تعين عليه أن يقترض المال من اليهود بالربا . وحين بدأت الحركة الصليبية

١- Runciman , S. , A Hist . of the Crusades, (New York 1964), vol . I, pp. 134-135 ; Robert S. Lopez, the Commercial Revolution of the Middle Ages : 950-1350 (Cambridge University Press 1974), pp. 60-61; Shapiro , op. cit., pp. 728- sp.

كان محتما أن يتحول انتباه الناس إلى أولئك الذين عانى المسيح على أيديهم. فقد ظهر اتجاه يقول إن المسلمين هم العدو الحالى لأنهم يضطهدون أتباع المسيح، ولكن اليهود أسوأ منهم لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه . وأخيرا هبت العاصفة التى كانت نذرها قد بدأت تتجمع منذ إعلان اربان الثانى عن الحملة الصليبية فى كليرمون ، وأطاحت رياحها العاتية بالجماعات اليهودية فى غرب أوربا.

ولسنا هنا بصدد التعرض لتفاصيل الاضطهادات الصليبية لليهود فى أوربا(١). ولكننا نحب أن نشير إلى حقيقة أن هذه الاضطهادات لايمكن أن تدخل فى السياق العام لما

١- عن هذا الموضوع انظر:
Edward Peters (ed.), The First Crusade- The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials (univ. of pennsylvania press, 1971 , pp. 94-104 .
حيث يورد رواية كل من البرت الايكسى Albert of Aix وايكهارد الأورى Ekkhard of Auara عن الاضطهادات التى نزلت باليهود أثناء حوادث الحملة الأولى. انظر أيضا:
Archives de l'Orient Latin , I, pp. 111-247 ; Shapiro,o op. cit., pp. 370 Runciman, op. cit., I, pp. 135-140 .
وكذلك ، قاسم عبده قاسم، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا».

يسمى بمعاداة السامية التى ابتدعها اليهود ورجوا لها لخدمة أهداف الحركة الصهيونية . فإذا كان التاريخ اليهودى قد شهد بعض حوادث العنف ضد الجماعات اليهودية فى المجتمعات التى عاشوا فى رحابها. فإن كل حادثة كانت إفرازا لظروف خاصة بالمجتمع والعصر الذي حدثت فيه ولايمكن أن نضعها جميعا فى سياق واحد، وتظل كل حادثة من هذه الحوادث قائمة بذاتها فى إطار ظروفها التاريخية الخاصة. فلا يمكن أن نضع الحوادث الناتجة عن التعصب الدينى فى إطار واحد مع الحوادث الناتجة عن التخلخل الاقتصادى أو الاضطراب السياسى مثلا. ومن ثم فإن ما حدث أثناء فترة الحروب الصليبية لايمكن ربطه بما حدث لليهود فى إسبانيا على يد الفيزيقوط (القوط الغربيين) من قبل، أو بما حدث لهم نتيجة لأحداث الوباء الأسود Black Death من بعد ، كما أنه لايمكن ربطه بما حدث لهم على أيدى الرومان فى سنة ٧٠ ميلادية، أو ما حدث لهم فى ألمانيا النازية فى القرن العشرين . (وهى مسألة فيها من الدعاية أكثر مما فيها من الحقائق التاريخية على أية حال) . لقد كانت الحروب الصليبية نفسها ميراثا تخلف عن القرن

الحادى عشر بما ساده من هوس دينى وحماسة وتطرف نتجت عن موجة التدين الشكلى النزق بين صفوف العلمانيين وعن حركة الاصلاح الكنسى، ومن ثم كان لابد للحركة أن تصب نيرانها على أعداء المسيحية فى الداخل وفى الخارج. ودليلنا فى هذا أن الكتاب اليهود أنفسهم يعترفون بازدهار الجماعات اليهودية فى أوربا طوال الفترة التى سبقت عصر الحروب الصليبية، بغض النظر عما حدث فى إسبانيا قبل الفتح الإسلامى.

ومن ناحية أخرى، فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة فى أوربا القرن الحادى عشر فرضت الاعتماد على المرابين اليهود الذين حرصوا على إرضاء الحكام وكبار الأساقفة حتى يمكنهم الانفراد بضحاياهم من الفقراء . ولما كان المرابون فى أى مجتمع محل كراهية الناس وحقدهم، فإن الغطاء الدينى الذى وفرته الحركة الصليبية للغضب ضد اليهود، يسر لجموع الصليبيين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلين. لقد أدت الحمى الاخروية التى ألهبت مشاعر من شاركوا فى الحملة الشعبية إلى تأجج نيران هذا الغضب بحيث جاءت مذابح سنة ١٠٩٦م نهاية للعصر الذهبى ليهود

شمال غرب أوربا. وكانت كل حملة صليبية تالية ترتكب مذابح مماثلة ضد اليهود بحيث عاشت الجماعات اليهودية بشكل مستمر فى ظل العزلة والخوف.

ولسنا نقصد هنا الدفاع عن سلوك الصليبيين تجاه يهود شمال غرب أوربا، ولكننا نود أن نوضح هذه المذابح والاضطهادات التى جرت على اليهود آنذاك يمكن دراستها باعتبارها ظاهرة تاريخية قائمة بذاتها، سواء من حيث الظروف التاريخية التى أفرزتها، أو من حيث النتائج التى أدت إليها، ولكننا لانستطيع أن نوافق على المحاولة التعسفية لوضعها فى السياق العام لما يسمى بمعاداة السامية. والناظر فى الابتزاز الصهيونى الحالى للأوربيين والأمريكيين بالإفراط فى استخدام سلاح «معاداة السامية» ضد كل من ينتقد السلوك الوحشى للإسرائيليين ضد الفلسطينيين العزل يمكنه أن يفهم بسهولة لماذا تستخدم «القراءة الصهيونية» لتاريخ الحركة الصليبية هذا السلاح فى تفسير الأحداث التى جرت منذ حوالى تسعمائة سنة. كما أن البابوية الحديثة (الفاتيكان) قد خضعت لهذا الابتزاز الصهيونى بتبرئة اليهود

من دم المسيح فى الستينيات، واعتذرت لهم عما جرى إبان الحروب الصليبية فى بداية القرن الحادى والعشرين .

ومن الأمور المثيرة أن الحركة الصليبية قد استخدمت فى دعايتها القصص التى ذاعت عن الاضطهادات التى يلقاها مسيحيو الشرق على يد المسلمين، وانطلق الدعاة والمبشرون يروجون لهذه القصص حتى تأججت نفوس المسيحيين بالرغبة فى قتل المسلمين، ثم امتدت هذه النزعة العدوانية لتحل باليهود باعتبارهم من أعداء المسيح والكنيسة. ثم جاءت الحركة الصهيونية لترتبط منذ بدايتها بالعمل الدعائى والحرب الاعلامية ، إذ قال هرتزل فى واحدة من خطبه الأولى : «علينا أن نخلق أكبر قسط من الضوضاء حول المشكلة اليهودية»(١). وإذا كان استخدام الأدب والفن وكتابة التاريخ إحدى وسائل الدعاية السياسية للحركة الصهيونية، فإننا يمكن أن نفهم حقيقة الموقف اليهودى من استغلال المذابح الصليبية ضد اليهود أثناء فترة الحروب الصليبية.

أما الموضوع الثانى، وهو محاولة سرقة التاريخ العربى

١- حامد عبد ربيع ، دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل، (سلسلة الثقافة الفلسطينية- دمشق ١٩٧٣م) ، ص١١ .

من خلال محاولة اختلاق دور تاريخى لليهود فى مواجهة الحركة الصليبية على أرض فلسطين، فهو أمر يتصل بالدعاية السياسية للحركة الصهونية وحرصها على استخدام الأدب وكتابة التاريخ أداة من أدوات الدعاية ، أو إثارة أكبر قدر ممكن من الضجة حول المشكلة اليهودية على حد تعبير هرتزل . فالمؤرخون اليهود يتحدثون عادة عن اليهود الذين قتلوا فى فلسطين دفاعا عن مدنهم وقراهم التى هاجمها الصليبيون، ويركزون الحديث على يهود مدينة المقدس. ولكن هذا القول مردود بعدد من الحقائق التاريخية الواضحة :

أولى هذه الحقائق أن اليهود فى فلسطين عند قدوم الحملة الصليبية الأولى، وقبلها بزمن طويل، لم يكونوا يعيشون ضمن كيانات سياسية مستقلة. ولكنهم عاشوا فى رحاب العالم العربى الإسلامى باعتبارهم أقلية دينية يتمتعون بالحريات الدينية والاقتصادية والاجتماعية التى كفلتها لهم النظرية السياسية الإسلامية وتطبيقاتها التى تجعل من غير المسلمين «أهل ذمة» فى دار الاسلام تجب على المسلمين حمايتهم لقاء ضريبة الجزية التى هى فى حقيقة أمرها ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر. ولأنهم لم يكونوا يعيشون فى كيان

سياسى مستقل فإنهم لم يكونوا يمتلكون الجيش أو الوسيلة العسكرية التى تمكنهم من التصدى للعدوان الصليبى.

كما أن القول بأن اليهود قد تصدوا لمقاومة العدوان الصليبى على المنطقة قول مردود لسبب بسيط هو أن الجيش فى الدول العربية الإسلامية، التى عاشوا فى رحابها آنذاك، كان يقوم على عقيدة الجهاد التى هى فرض على المسلمين وحدهم، ومن ثم لم يكن ممكنا أن يلتحق غير المسلمين بالجيش الإسلامى. وإذا كانت المصادر قد حدثتنا عن مساهمات فردية من جانب المسيحيين الشرقيين فى أعمال المساعدة العسكرية ضد الصليبيين، فإن هذه المصادر نفسها لم تذكر لنا مثلا واحدا على قيام اليهود بمثل هذا العمل . ومن ناحية أخرى، فإن يهود ذلك الزمان لم يكونوا أهل قتال ، وهذه حقيقة على جانب كبير من الأهمية لاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الجنود والمقاتلين المحترفين كانوا يتفرغون للحياة العسكرية طوال حياتهم نظرا لما كان القتال يتطلبه آنذاك من مهارات عالية. ولياقة جسمانية وتدريب مستمر. فضلاً عن أنه لم يكن مسموحًا لعامة الناس بامتلاك الخيول والأسلحة باعتبارها من أدوات القتال.

ومن ناحية أخرى، فإنه من الثابت تاريخيا أن الحياة اليهودية داخل المناطق الصليبية قد ازدهرت، وقد ذكر الرحالة اليهودى الأسبانى بنيامين التطيلى، الذى زار المنطقة زمن نور الدين محمود معلومات طيبة عن أعداد اليهود فى فلسطين زمن الحروب الصليبية وعن الحرف التى كانوا يشتغلون بها. ومن خلال الأعداد الضئيلة التى ذكرها هذا الرحالة اليهودى ومن خلال حرف اليهود التى ذكرها نستطيع أن ندرك بسهولة أنهم لم يكونوا مؤهلين للقيام بهذا الدور الذى تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم. وتكشف كلمات بنيامين التطيلى والمقارنة بين أعداد اليهود فى المناطق الصليبية وأعدادهم فى المناطق الاسلامية عن أن اليهود فى المناطق الاسلامية كانوا أكثر عددا ، كما كانت مهنهم أكثر رقيا(١)، ولكن أعدادهم كانت هزيلة

١- ذكر بنيامين التطيلى مثلا أن عدد اليهود فى أنطاكية كانوا حوالى عشرة يشتغلون بصناعة الزجاج (p. 58) كما ذكر أن عدد اليهود فى اللاذقية مائتين (p.59) وفى جبيل ١٥٠يهوديا (p. 60)، وفى صيدا حوالى عشرين، وفى بيروت حوالى خمسين (p. 61) وفى صور حوالى ٤٠٠ يهودى من أصحاب السفن وصناعة الزجاج (pp. 62-63) وفى عكا عاش ما يقرب من مائتى يهودى، وفى بيت لحم اثنى عشر يهوديا يشتغلون بالصباغة (p. 75) والرملة ثلاثة يهود فقط هى وبيت جبريل (pp. 77-79). انظر:
The itinerary of Rabbi Benijamin of Tudela, translated and edited by : A. Asher , 2 vols . London 1840 .

بالقدر الذى يجعلنا نرفض قبول مثل هذا التزييف للواقع التاريخى.

ومن اللافت للنظر أيضا أن حركة المقاومة التى بدأها المسلمون ضد الصليبيين لم تجتذب انتباه اليهود فى المنطقة العربية، ولم يقوموا بأى دور ملحوظ فى الصراع السياسى/ العسكرى الذى دار آنذاك بين المسلمين والمستوطنين اللاتين طول ما يقرب من مائتى سنة، وهو أمر يتمشى مع حقيقة حجمهم العددى، ووضعيتهم الاجتماعية فى البلدان العربية والمناطق الصليبية على حد سواء. حقا لم تفرق سيوف الصليبيين بين المسلمين والمسيحيين العرب واليهود فى مجزرة بيت المقدس، فقد كانت النظرة الصليبية الدينية تجاه الفريقين واحدة تقريبا لقد قامت الفكرة الصليبية على أساس تكفير المسلمين واليهود باعتبارهم أعداء للمسيحية، وعلى هذا الأساس منع الصليبيون المسلمين واليهود من دخول بيت المقدس ، وكانت ذريعتهم فى ذلك أنه يجب تطهير الأماكن التى شهدت تجسد السيد السيح ومعاناته وآلامه من أولئك الذين تسببوا فى آلامه (اليهود) وأولئك الذين يضطهدون أتباعه (المسلمين) . هذه النظرة هى التى حكمت تصرفات

اللاتين فى المنطقة العربية تجاه المسلمين واليهود، ولكن بينما تصدى المسلمون لمقاومة الوجود الصليبى بشكل إيجابى كان الموقف اليهودى سلبيا تماما. هذا الدور السلبى لليهود فى إطار النظرة الصليبية الموحدة تجاههم هم والمسلمين لايعطى للمؤرخين اليهود الحق فى المساواة بين دور العرب المسلمين ودور اليهود فى الصراع ضد الصليبيين. ذلك أن مثل هذا الموقف يغفل تماما السلبية التى اتسم بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها فى أوربا، ولم تفعل شيئا سوى الانتحار الجماعى، كما أن الجماعات اليهودية فى فلسطين لم تكن تملك سوى أن تستسلم لمصيرها على أيدى الصليبيين.

وفى تصورنا أن هذا الموقف السلبى ناتج عن تشابه وضع الأقليات اليهودية فى كل من أوربا والمنطقة العربية، حقيقة أن يهود المنطقة العربية قد عاشوا حياة أكثر أمنا ، وتحركوا بحرية أكثر، وتقلدوا المناصب ولعبوا دورا أكبر فى حياة المجتمع، ولكنهم ظلوا يتصرفون بعقلية الأقلية الغريبة التى لاتريد لنفسها التورط فى الدفاع عن شئ لاتملكه . ولذلك كانت المقاومة السلبية من جانب الجماعات اليهودية فى حوض

الراين أشبه باستسلام الاقلية اليهودية فى فلسطين. لقد اقتصر دور الجماعات اليهودية على إرسال رسائل التحذير من الصليبيين لرفاق دينهم وعلى طقوس الانتحار الجماعى. ولكن هذه المقاومة السلبية لم تكن لتوقف المد الصليبى فى أرض الشرق العربى ، أو تساعد على تغيير مجريات الأحداث . ومن الأمور ذات الدلالة أن الحى اليهودى فى مدينة بيت المقدس كان هو نقطة الضعف التى استفاد منها الصليبيون فى حصارهم للمدينة، ومنها شقوا طريقهم إلى داخل المدينة المقدسة.

هكذا، إذن، لايمكننا أن نوافق على أن اليهود قد لعبوا دورا مساويا لدور العرب المسلمين فى التصدى للغزو الصليبى. وهو أمر نراه طبيعيا، لأن العرب هم أصحاب البلاد، وقد جعلهم الغزو يتحولون فى بعض المناطق من حكام إلى محكومين، ومن أكثرية إلى أقلية، ولذلك كان لابد لهم من التصدى لهذه الحركة. وقد ظل العرب على مقاومتهم العنيدة قرابة قرنين من الزمان حتى تم لهم طرد الصليبيين واسترداد بلادهم. وهو أمر يختلف تماما عن نظرة الأقلية اليهودية التى كانت أعدادها قليلة، كما تركز نشاط أفرادها فى بعض المهن

المالية والصناعية ولم يزعجها شئ فى استبدال حاكم بآخر، سوى احتمال أن يكون الحاكم الجديد أقل تسامحا من الحاكم السابق. لقد كان المال هو خط الدفاع الحقيقى الذى يستخدمه اليهود، وإذ فشل هذا السلاح فى مواجهة الصليبيين تجرد اليهود من كل سلاح.

وعلى أية حال، فإن محاولة سرقة التاريخ العربى، وانتحال دور إيجابى لليهود أثناء فترة الحروب الصليبية ليس بالأمر الجديد أو الغريب على الاتجاه الفكرى للحركة الدعائية الصهيونية. إذ أن هذه هى الملامح الأساسية للقراءة الصهيونية للتاريخ عموما ولتاريخ الحركة الصليبية خصوصاً ذلك أن كتاب الأدب والتاريخ اليهود منذ القرن التاسع عشر راحوا يعيدون قراءة التاريخ وفقًا للخطوط العامة للقراءة الصهيونية للتاريخ. ولم يقف الأمر بهم عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظرهم، بل وصل بهم الأمر إلى القيام بعملية تشويه منظمة للتاريخ العربى. ولم تقتصر حركة التأليف اليهودي على الدفاع عن صورة اليهودى من جانب والتشويه لصورة العربى والمسلم من جانب آخر، وإنما أخذت لنفسها بعدا ثالثا يحاول ايجاد عملية ربط وتتابع بين ما

أسـمـوه ، زوراً وبهـتـانًا «الحـضـارة اليـهـودية» والحـضـارة المسيحية. هذه الحركة التى كانت تهدف إلى إحياء ما يسمى بالوعى القومى اليهودى ، والدفاع عن الطابع القومى اليهودى على الرغم مما هو معروف من أن الجماعات اليهودية فى شتى أنحاء العالم لم تكن تملك لغتها القومية الخاصة، وإنما كانت تستخدم لغة المجتمع الذى تعيش فى رحابه، أو خليط من تلك اللغة مع بعض الكلمات والمصطلحات العبرية(١). كما أنها عاشت وفق العادات والتقاليد والثقافة السائدة فى المجتمعات التى عاشوا فى رحابها ؛ بحيث أن اليهود القادمين من أوربا إلى المنطقة العربية فى تلك العصور كانوا يبدون دهشتهم من عادات وتقاليد يهود العالم العربى . وبعد نجاح الحركة الصهيونية فى سرقة الوطن الفلسطينى وزرع الكيان الاسرائيلى عليه، بدأ الاسرائيليون يحاولون سرقة التاريخ والتراث العربى. بل إن المشكلة تعدت حدود البحوث والدراسات التى يمكن الرد عليها وتفنيدها . لقد سرق الصهاينة الوطن الفلسطينى وراحو يختلقون لأنفسهم وجودا

١- حامد ربيع ، دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل، ص١٦-١٨ .

تاريخيا على الأرض العربية، وامتدت أياديهم تسرق التراث والفن والتقاليد العربية وتنسبها إلى الاسرائيليين . فهناك على سبيل المثال مركز اسرائيلى للدراسات والبحوث الفولكلورية تابع للجامعة العبرية فى القدس، وهو يهتم بجمع وتسجيل ما يسمى «بالتراث الفولكلورى الاسرائيلى» ، ولهذا المركز أرشيف يضم آلاف النصوص الشعبية ... وهو أمر يثير الدهشة والتساؤل، على حد تعبير أحد الباحثين «... فكيف يمكن أن يوجد ما يسمى بالفولكلور الاسرائيلى، ولم يكن هناك قبل سنة ١٩٤٨ شعب اسمه الشعب الاسرائيلى، ولم تكن هناك دولة اسمها اسرائيل . ذلك أن الحقيقة العلمية تفترض أنه لكى يكون لشعب ما تراث شعبى ، فإنه ينبغى أن يكون هناك وطن يعيش فيه ، ولغة يستطيع أن يبدع فيها ، وأن يعبر بها عن نفسه. ومن الثابت تاريخيا أن ذلك لم يحدث «فالأدب العبرى» - مثلا- مصطلح يطلق على أدب لم يدون فى وطن بعينه أو لغة بعينها ، بل فى مختلف دول الشرق والغرب، قديما وحديثا ، والقليل منه هو الذى وصلنا فى العبرية سواء قبل الميلاد أو بعده ....»(١).

١- أحمد على مرسى، وفاروق محمد جودى، الفولكلور والاسرائيليات (دار المعارف١٩٧٧) ، ص٨-١٢ .

وما يقال عن اللغة العبرية يقال أيضا عن «الشعب الاسرائيلى» الذى يتكون من جماعات تنتسب إلى قوميات مختلفة، وثقافات متعددة، ومراحل حضارية متفاوتة ، ولايجمع بينها سوى الدين اليهودى الذى لايمكن أن يكون وحده أساسا لقيام الأمة. وإذا سلمنا بوجود تراث شعبى دينى لليهود، فإننا لايمكن أن نوافق على أنه كان لليهود تراث شعبى علمانى واحد منفصل عن تراث الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها . وعلى أية حال فإن اليهود يبذلون جهدا كبيرا من أجل إيجاد ذاتية لهم، وتراث أو ثقافة واحدة تجمعهم. وهم فى هذا السبيل ، يسرقون التراث العربى وينسبونه لأنفسهم وبين يدى العالم الآن آلاف الدراسات عما يسمى بالفولكلور اليهودى، والميثولوجيا اليهودية، والعادات والتقاليد والاحتفالات اليهودية، وغيرها مما ينسبونه إلى اسرائيل والشعب الاسرائيلى(١).

ومن المثير أن هذه كلها أمور هى صميم من تراث الشعوب العربية؛ فالأمثال العامية التى تتعلق بالولادة وتربية

١- أحمد مرسى، المرجع السابق ، ص١٠ وانظر القائمة البيبلوجرافية عن بعض الدراسات فى الفولكلور العربى واليهودى والتى أعدها الدكتور أحمد مرسى فى نفس الكتاب، ص١٤٥-١٦٨ .

الأطفال ، مثلا، والتى تنسبها الدعاية الصهيونية إلى اليهود، ما تزال سارية إلى اليوم فى أرجاء العالم العربى.

بل إنهم راحوا يطرحون فى الأسواق العالمية ، لاسيما فى أوربا وأمريكا، الملابس العربية المطرزة، والحلى والجواهر ، والمشغولات المعدنية العربية، فضلا عن أصناف الحلوى العربية (الحلويات الشامية) والأطعمة المصرية والفلسطينية والسورية والمغربية وغيرها، ويدعون أنها جميعا نتاج التراث الشعبى اليهودى أو الاسرائيلى. وتكتمل جوانب المخطط اليهودى لسرقة التاريخ والتراث العربى بالرقصات والأغنيات الشعبية العربية التى يقدمونها للعالم باعتبارها فنونا شعبية إسرائيلية.

وتأتى سرقة الآثار العربية من المناطق التى يحتلها الاسرائيليون لتكون برهانا ماديا على جريمة سرقة التاريخ العربى التى يريدون بها تدعيم سرقتهم للوطن الفلسطينى. فقد اشتهر عدد كبير من قادة الكيان الصهيونى بالتنقيب عن الآثار، وقد سرقوا كثيرا من الآثار من فلسطين والأردن وسوريا وسيناء، كما أنهم نشطوا تماما أثناء الغزو الاسرائيلى الأخير للبنان فى سرقة الآثار بشكل يهدد السمعة

التى تتمتع بها المنطقة العربية فى هذا المجال . والمشكلة أفدح وأخطر من أن نغض الطرف عنها، فقد يأتى يوم ينظر فيه العالم إلى المنطقة العربية على أنها تعيش عالة من الناحية الحضارية على تراث اسرائيل وابداع الشعب الاسرائيلى المستمر المتواصل عبر الزمان والمكان وهم لايدخرون وسعا فى هذا السبيل . وموقفهم من الحروب الصليبية ومحاولة اختلاق دور ايجابى ليهود العالم العربى فى مواجهتها جانب من جوانب هذه المحاولة التى يجب التصدى لها بالعقل والعلم والصبر.

أما الموضوع الثالث فى الموقف اليهودى من الحركة الصليبية، فهو نابع من إدراكهم لحقيقة الوظيفة الثقافية والاجتماعية للتاريخ كعلم. فهم يدرسون تاريخ الحركة الصليبية مع التركيز على الوجود اللاتينى فوق أرض فلسطين وطبيعة علاقات الصليبيين بشعوب المنطقة ، وعوامل النجاح التى حققت لهم الانتصارات الأولية، ثم عوامل الفشل والاخفاق التى أدت إلى رحيل الصليبيين من المنطقة العربية ونهاية دولتهم. وإذا كنا نؤمن إيمانا قاطعا بأن التاريخ لايعيد نفسه، فإننا ندرك أيضا أن الظروف التاريخية المتشابهة

يمكن أن تؤدى أيضا إلى نتائج متشابهة وليست متماثلة .
ومع تسليمنا بوجود الكثير من أوجه الخلاف بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية من ناحية ، وبين الكيان الصليبى والكيان الاسرائيلى من ناحية أخرى ، فإن هناك جوانب أساسية للتشابه بينهما، فكلتا الحركتين استعمارية استيطانية تسربت برداء الدين، وارتكزت على مفهوم الخلاص. وفكرة الشعب المختار والأرض الموعودة ، وهى أفكار أعلنها البابا أربان الثانى صراحة بكليرمون عشية الحروب الصليبية ، كما روجت لها القراءة الصهيونية للتاريخ عشية الهجوم على فلسطين وما تزال ترددها . وكل من مملكة بيت المقدس اللاتينية واسرائيل كيان غريب، يضم مجموعات بشرية متفاوتة الثقافات والدرجات الحضارية ، زرع فى أرض عربية اللسان، اسلامية الثقافة ، شرقية السمات. كما أن الصليبيين والصهاينة يشتركون فى الاعتماد على مساندة ظهير من خارج المنطقة ، كان هو الغرب الأوربى فى كلتى الحالين. فضلا عن جوانب أخرى تشابه فيها الصليبيون الاسرائيليون ، منها الطابع العسكرى للمجتمع ، وتوظيف كافة موارد هذا المجتمع من أجل

الحرب ، ومنها العنصرية التي تختفى خلف ستار الدين ... وما إلى ذلك.

هذا التشابه هو الذى يغرى الكثيرين من الدارسين اليهود بدراسة تاريخ الحركة الصليبية وتسخير نتائج دراساتهم فى دراسة مستقبل الكيان الصهيونى . ولاشك فى أن المتغيرات فى تاريخ العلاقات الدولية قد أوجد عوامل جديدة لم تكن قائمة فى العصور الوسطى، كما أن التطور التكنولوچى المذهل أوجد حقائق كثيرة فى مجال الصراع، لاسيما ما يتعلق منه بعمليات التسليح وأساليب الحرب الحديثة وأسلحة الدمار الشامل بكل تداعياتها السياسية والأمنية. بيد أن هذا لايمنع من دراسة تاريخ الحركة الصليبية وعيوننا على الحركة الصهيونية ، لاسيما وأن المسرح الذى شهد كلا من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية واحد، كما أن الشعب العربى هو الذى تصدى للعدوان الصليبى بالأمس وعليه أن يتصدى للعدوان الصهيونى اليوم. ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن مثل هذه الدراسة لم تكن وقفا على الباحثين اليهود وحدهم، فقد اهتم كثيرون من الباحثين المسلمين والمسيحيين

برصد عوامل الفشل التى قضت على الوجود الصليبى في المنطقة العربية قبل حوالى سبعمائة سنة.

هذه، بشكل عام، هى المسارات الأساسية الثلاثة للموقف اليهودى من الحروب الصليبية. فإذا انتقلنا إلى دراسة الموقف الاسرائيلى لوجدناه يتوازى مع الموقف اليهودى العام، وأن خرجت منه مسارات فرعية تفرضها طبيعية الكيان الاسرائيلى ومن يعيشون فى نطاقه، فمشكلة الأمن ، والحدود الطبيعية ، وما تستوجبه من بناء طرق سريعة واقامة جيش قادر خفيف الحركة . ومحاولات تزييف الوعى بطبيعة الشعوب العربية المتصارعه مع اسرائيل، والاسقاطات المعاصرة على تاريخ الحركة الصليبية، ومحاولة النيل من أبطال التاريخ العربى ورموز الجهاد فيه ... كلها روافد تتضافر مع المسارات الثلاثة الأساسية لتخلق ما يمكن أن نسميه بالقراءة الصهيونية للحروب الصليبية. وهذا هو مضووع الفصل الثالث .

الفصل الثالث

القراءة الصهيونية للحروب الصليبية

يوشع براور ومؤلفاته - كتاب عالم الصليبيين وأهميته- فكرة الأرض الموعودة- مذابح اليهود ومعاداة السامية- مفهوم الأمن والحدود الطبيعية- سرقة التاريخ - الطابع العسكرى للكيان الصليبى - تغير العلاقات الدولية- ملاحظات أخيرة.

اخترنا المؤرخ الاسرائيلى المعاصر «يوشع براور» ليكون نافذتنا التى نطل منها على الموقف الاسرائيلي من الحروب الصليبية. وبطبيعة الحال فنحن لاندعى أن هذا المؤرخ يمثل الاسرائيليين جميعا فى هذا الموضوع، ولكننا نعتقد أنه يمكن أن يجسد رؤية كثيرين من الاسرائيليين المعاصرين فى عدة نقاط أساسية . كما أن كتاباته تعكس كثيرا من المفاهيم والأفكار التى يرددها الصهاينة المعاصرون. وكتاباته مليئة

بالاسقاطات المعاصرة التى تجعل منه نموذجا فذا لدراسة الموقف الاسرائيلى من الحروب الصليبية. كما أن أهميته فى مجال دراسة الحركة الصليبية على مستوى العالم تجعلنا نتلمس أبعاد القراءة الصهيونية لتاريخ الحركة الصليبية فى أعمال هذا الرجل الذى مات منذ سنوات قليلة .

والأستاذ يوشع براور هو أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية بالقدس[١] وهو صاحب اسم مشهور لامع بين المتخصصين فى دراسة تاريخ الحركة الصليبية والحقيقة أنه باحث ممتاز متمكن من أدوات البحث، كما أن أسلوبه يتميز بالسلاسة والدقة فى التعبير، وهو أيضا على معرفة ودراية واسعة بمصادر تاريخ الحروب الصليبية والدراسات الحديثة التى صدرت عنها. وليوشع براور عدة دراسات وبحوث عن الحركة الصليبية هى حسب الترتيب الزمنى لتواريخ نشرها:

1941

1- " The role of Jews in Medieval Trade, " The

١- كان هذا هو آخر منصب نعرف أنه تولاه سنة ١٩٧٢م، وقد مات يوشع براور منذ سنوات قليلة.

Commerce of Gentiles and Jews (Tel Aviv, 1941) , pp. 74-92 (Hebrew) .

1946

2- " The Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem . " Zion 11 (1946) , 38-82 (Hebrew) .

1947.

3- The Crusader kingdom of Jerusalem (1099-1291) (Jerusalem) 1947) . 156 pp. (Hebrew).

4- " The Vicissitudes of the Jewish Quarter in Jerusalem in the Arabic Period , " Zion 12 (1947), 136-148 (Hebrew) .

5- " The Jewish Population in Palestine : Arab Rule ; the Crusaders; the Mameluk Period (640-1516) , " Three Historical Memoranda submitted by the General Council (Jerusau-salem, 1947) , pp. 24-51 .

1948

6- " Toward the Critique of Letters from Jerusalem from the 15 th and 16 th Centuries, " Jerusalem Quarterly for the Study of Jerusalem and its History 2 (1948), 139-159 (He-

brew).
7- " The Friars of Mount Zion and the Jews of Jerusalem in the fifteenth Century , " Bulletin of the Jewish Palestine Exploration Sociery 14 (1948 / 49) 15-24 (Hebrew) .
1951
8- " L'étblissement des coutumes du marché á Saint - Jean d'Acre et la date de composition du Livre des Assises des Bourgeois, " RHDFE 29 (1951), 329-351 .
9- " Colonisation Activities in the Latin kingdom of Jerusalem " Revue belge de philologie et d'hisotoire 29 (1951) , 1063-1118 (revised version in no , 78) .
10- " On Agricululre under the Crusaders, " Eretz-Israel 1 (1951), 145-152 (Hebrew) (revised French and English versions in nos , 14, 78).
1952
11- " The Assise de Teneure and the Assise de Vente : A study of Landed Property in the Latin Kingdom , " Economic History Review 41)1951-52), 77-87 (revised version in no , 78)

12- " Le muid royal de saint- Jean d'Acre et les measures arabes contemporaires, " Byzantion 22 (1952), 58-61 .

13- " The Settlement of the Latins in Jerusalem, " Speculum 27 (1952), 490-503 (Revised version in no, 78).

1953

14- " Etude de quelques problémes agraires et sociaux d'une seigneurie croisée au XIIIe siécle , " Byzantion 22 (1952) , 1-61 ; 23 (1953), 143-170 (revised English version in no , 78) .

15- " Historical Maps of Acre, " Ereiz- Israal 2 (1953) , 175-184 (Hebrew).

16- Review article of : S. History of theCrusades, 2. The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100-1187 (Cambridge, 1952) , In : Byzantion 23 (1953), 569-572 .

1954

17- "Les premiers temps de la féodlité dans le royaume latin de Jérusalem, " Revue d'histoire du droit 22 (1954), 401-424 (Revised English version in no, 78) .

18- " Etude préliminaire sur les sources et la com-

position du livre des Assises des Bourgeois , " RHDFE 32 (1954), 198-227 (Revised English version in no , 781.

19- Review article of : S. Runciman , A History of the Crusades, 3, the kingdom of Acre and the later Crusades (Cambridge, 1954) , In " Byzantion 24 (1954), 327-330 .

20- Review article of : G. Kraemer , Der Sturz des kanigreichs Jerusalem (583/ 1187) in der Darstellung des imad ad - Din al - Isfahdni (Wiesbaden, 1952), In : Erasmus 7 (1954) , 419-420 .

21- review article of : P.W. Topping, Feudal Institutions as Revealed in the Assises of Romania, the Law Code of Frankish Greece (Philadelphia, 1949), In: RHDFE 32 (1954), 129-133 .

1955

22- (With Ch. Perrat): " Une tenure en bourgeoisie de Morée au XIIIe siécle. " RHDFE 33)1955), 99-102 .

1956

23- " Ascalon and the Ascalon Strip in Crusader Politics" Eretz- Israel 4 (1956) , 231-251

(Hebrew).

1957

24- " Jerusalem, Capital of the Crusader Kingdom ", in Judah and Jerusalem . The Twelfth Archaeological Convention (Jerusalem, 1957) , pp. 90-104 (Hebrew).

1958

25- " The City and County of Ascalon in the Crusader Period", Eretz- Israel 5 (1958), 224-237 (Hebrew).

26- Review article of : R.C. Smail , Crusading Warfare (1097-1193) Cambridge, 1956), In : Revue belge de Philologie et d'histoire 36 (1958), 303-304 .

1959

27- " La noblesse et le Regime féodal du royaume latin de Jérusalem, " Moyen Age 65 (1959), 41-74 (revised English Versions in nos , 48 , 78) .

28- Review article of : K.M. Setton and M.W. Baldwin, eds. The First Hundred Years (Philadelphia, 1955) (= A History of the Crusades, 1). In: Revue belge de philologie et d'histoire 37 (1959) , 167-170.

1960

29- Palestine during the Crusader Period , Tel Aviv, 1960, 75 pp. (Hebrew).

30- (with M. Benvenisti:) " Crusader Palestine: Map and Index" in Atlas of Israel (Jeusalem, 1960): second ed., Jerusalem, 1972), sheet 9, 10 .

31- Review article of : Gunther von Pairis , Historia Constantinoplitana, ed and trans E. Assman (Weimar, 1956) , In : Revue belge de philologie et d'histoire 38 (1960) , 658-659 .

196162

32- " Etude sur le droit des Assises de Jérusalem: droit de confiscation et droit d'exhérédation, RHDFE 39 (1961), 520-551 : 40 (1962), 29-42 (Revised English version in no . 78) .

33- Review article of : Le traité d'Emmanuel Piloti sur le Passage en Terre Sainte, ed. E. Nauwelarts and B Nauwelaerts (Louvain - Paris, 1958), In : Revue belge de philologie et d' histoire 40 (1962)), 1095-1097 .

1963

34- A History of the Latin Kingdom of Jerusalem , 2 vols, Jerusaiem , 1963 ; 2 nd ed , Jerusalem, 1971

وقد تمت ترجمتـه إلى اللغة العـربية بعناية الدكتور عـبد الحافظ عبد الخالق البنا، دار عين للدراسات ٢٠٠٠م، بعنوان تاريخ مملكة بيت المقدس اللاتينية.

602+547 pp. (Hebrew) (French trans, in no, 51) .

35- " Sinai and the Red sea in Crusader Policy , " in Elath . the Eighteenth Archaeological Convention (Jerusalem, 1963) , pp. 168-181 (Hebrew) (English version in no . 78) .

36- " High Education , General Education and High Schools", in Theory and Practice in Education . Studies in Memory of Abraham Arnon (Tel- Aviv, 1963), pp. 463-470 (Hebrew).

1964

37- " The Battle of Hattin, " Eretz- Israel 7 (1964) , 117-124 (Hebrew) (for French and English versions see nos, 39 , 78) .

38- Review article of : R.L. Wolff and H.W. Hazard, eds. The Later Crusades, 1189- 1131

(Philadelphia, 1962) (=The History of the Crusades, ed, K.M.A. Setton, 2) . In : Revue belge de Philologie et d'historie 42 (1964), 633-634 .

39- " La bataille de Hattin , " Israel Exploration Journal 14 (1964), 160-179 (for Hebrew and English versions see nos 37 , 38) .

1965

40- " The Lovers of Zion" in the Middle Ages: Immigrations to Palestine in the Crusader Period , " in western Galilee and the Coast of Galilee. The Nineteenth Archaeological Convention (Jerusalem, 1965), pp. 129-136 (Hebrew).

1966

41- " Estates, Communities and Constitution of the Latin Kingdom, " Proceedings of the Isreal Academy of Sciences and Humanities 2 (1966), pp. 1-42 (repr, Jerusalem, 1969 , 42 pp.) (for an enlarged version see no . 78 : an abridged version appeared in F.L. Cheyette, ed., Lordship and Community in Medieval Europe (New York . 1968) , pp. 156-179 .

1967

42- " The History of the Castle of Belvoir, "Bulletin of the Jewish Palestine Exploration Society 31 (1967) 236-249 (Hebrew).
43- " The Monastery of the Cross, "Ariel 18 (1968), 59-62.
44- " Jewish Resettlement in Crusader Jerusalem. " Ariel 19 (1967) , 60-66 .
45- " Crusader Jerusalem , " Qadmoniot 1 (1967) , 39-40 (Hebrew) .
46- " The Lintels of the Holy Sepulchre, " Qadmoniot 1 (1967) , 47-51 (Hebrew).
1968
47- Jerusalem, Living City , Jerusalem , 1968 (English, French German and Spanish editions)
48- " The Nobility and the feudal Regime in the Latin kingdom of Jerusalem. " in Cheyette, ed., Lordship (no , 41 abive), pp. 156-179 (English translation of no, 27 ; see also no 78 .
49- " Christianity Between Heavenly and Earthly Jerusalem", in Jerusalem Through the Ages. The Twenty- fifth Archaeological Convention (Jerusalem, 1968) , pp. 179-192.(He-

brew).

50- (with S.N. Eisenstadt:) " feudalism", in international Encyclopedia pf the social sciences 2 (New York, 1968) , pp. 393-403 .

1969

51- Histoire du royaume latin de Jérusalem 2 vols , Paris, 1969-71 2 nd ed., Paris, 1975 (French trans, of no, 37).

52- "The Next Ten Years, " in The University and Social welfare ed. i, katz (Jerusalem , 1969), pp. 175-178 .

1972

53- The Latin kingdom of Jerusalem, European Colonialism in the Middle Ages , London , 1972, 587 , pp. (for Hebrew version see no . 630.

54- The World of the Crusades, Jerusalem , 1972 , 160 pp. (for German trans, see no . 59) .

وقد تمت ترجمة هذا الكتاب مع تقديم وتعقيب د.قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن ، عالم الصليبيين، دار المعارف ١٩٨٠م.

55- " Foreworld : Life and Works of Marino Sanudo , " in the photographic teproduction of

Sanudo's Liber Secretorum Fidelim Crucis (Jerusalem, 1972) , pp. V- XVII .

1973

56- " R. Ashtori Ha- Paris , The First Jewish Georgrapher of Eretz- Israel, " in Eretz- Shomron. the Thirtieth Archaeological Con- vention (Jerusalem , 1973) , pp. 106-113 (Hebrew).

57- " Preface : Biographical Sketch of Ct. M de Vogué; in the photographic reproduction of M. de Vogue . Les Eglises de la Terre Sainte Jerusalem, 1973) , pp. III-VI .

58- : I Venezianie L colonie veneziane nel Regno Latino di Gerusalemme. " in Venezia e il Levante fino al sec XV, ed , A, Pertusi (Florience, 1973) , pp. 625-656 (enlarged English version in no . 78) .

1974

59- Die Welt der Kreuzfahrer , Wiesvaden, 1974, 2nd ed. 1979, (German trans, of no . 54) .

60- " A Crusader Tomb of 1290 from Acre and the Last Archbishop of Nazareth . " Israel Exploration Journal 24 (1974) , 241- 251 .

61- Review article of :R.C. Smail . The Crusaders

in Syria and the Holy Land (London, 1973)
, In : Antiquity 48 (1974), 323-324 .

1975

62- Heiliges Land Geschichre des Hieliges Landes in Text und Bild, Bern- Stuttgart , 1975 ; second ed. 1977 .

63- The Crusaders: The Profile of a Colonial Society ; Jerusalem, 1975 , 661 pp. (Hebrew version of no . 53).

1976

64- " The Armenians in Jerusalem under the Crusaders, " in Armenian and Biblical Studies . ed. M.E. Stone (Jerusalem, 1976) , pp. 222-236 .

65- " Notes on the History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem, " Shalem 2 (1976), 103-112 (Hebrew) (English trans, in no. 74) .

66- " The Autobiography of Obadyah the Norman Convert ", Tarbiz 45 (1976) 272-295 (Hebrew) (for English version see no , 73) .

67- . Review article of : T. Tobler , Descriptiones Terrae Sanctae (Leipizig, 1874, repr, Hildesheim 1974), In Bulletin of the Institute of

Jewish Studies (1976).

1977

68- " Jewish Quarters in Jerusalem, " The Israel Museum News 12 (1977), 8091 .

69- " History , Faith and Beauty, " Jerusalem, Most Fair of Cities (Jerusalem , 1977) , pp. 4-16 .

70- " The Earliest Commune of Tripoli and the Tower of the Mint , " in Studies in Memory of Gaston wiet , ed., M; Rosen- Ayalon (jerusalem, 1977), pp. 171-177 .

71- " Crusader Cities, " in The Medieval city , ed. H.A. Miskimin et al . (New Haven and London , 1977) , pp. 179-199 .

1978

72- " The Jewish Community as a Force for Jewish Continuity: An Histoical Perspective , " Journal of Jewish Communal services 55 (1978), 2343 (French and Hebrew translations)

1979

73- " The Autobiography of Obadiah the Norman, a Convert to Judaism at the Time of the First Crusade, " in Studies in Medieval

Jewish History and Literature , ed. I. Twersky (Cambridge Mass, 1979) , pp. 110-134 (Englsih version of no . 66) .
74- " Notes on he History of the Jews in the Latin kingdom of Jerusalem . " Immanuel 9 (1979), 81-87 (English version of no 65) .
75- Jérusalem terrestre , Jérusalem céleste . Jérusalem dans la perspective chrétienne et Juive au haut Moyen Age et á la veille de la premiére croisade, " Jérusalem : i'Unique et i'Iniversel , Colloques d'intellectuels Juifs de langue francaise (Vansôme, 1979) , pp. 17-27 .
76- " Christian Distraught in the Realization of Claims for Inheritance of the Holy City" , Cathedra ii (1979), 135-136 (Hebrew).
77- " The Defense Doctrine of the Crusaders, " Elazar Papers 2 (1979), 16-23 (Hebrew).
1980
78- Crusader Institutions . Oxford, 1980 , 536, pp.
79- : Jerusalem in Jewish and Christian Thought of the Early Middle Ages , " Cathedra 17 (1980) , 40-72 (Hebrew) (for English version see no. 81).

80- " Military Orders and Crusader Polities in the Second Half of the XIII th Century ". Die geistlichen Ritterorden Europas. ed . J./ Flckenstein and M. Hellmann (Sigmaringen) 1980) , pp. 217-229 .
81- " Jerusalem in the Christian and Jewish Persectives of the Early Middle Ages, " in Settimane di Studie sull' Alto Medio Evo (Spoleto, 1980) , pp. 1-57 (for Hebrew version see no . 79) .
82- " The Archaeological Research of the Crusader period in Thirty Years of archaeology in Isrrael . 1948-1978 (Jerusalem , 1981) , pp. 117-128 (Hebrew).
83- " On Ya;akov, in Memoriam J.L . Talom (Jerusalem, 1981) pp. 40-47 (Hebrew).
84- (Editor) The History of Eretz- Israel Under Moslem and Crusader Rule (634-1291) . Jerusalem, 1981 (Hebrew))[1].

هذه الدراسات التى استطعنا حصرها ليوشع براور تؤكد على اهتمامه بالجوانب الاستيطانية ، فى تاريخ الحركة الصليبية ، فهو يهتم بموضوع حيازة الأرض التى يعالجها

فى أكثر من خمس دراسات كما يهتم في دراساته عموما بالنشاط الاستعمارى للصليبيين ومشاكل الاستيطان والموارد البشرية للمملكة اللاتينية ، فضلا عن اهتمامه الواضح بالمقومات الاقتصادية والاجتماعية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية. أما كتاباه اللذان أشرنا اليهما، فأولهما (مملكة بيت المقدس اللاتينية) عبارة عن استعراض شامل، فى مجلدين، لتاريخ مملكة بيت المقدس منذ بداية الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر وحتى نهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية فى نهاية القرن الثالث عشر. والكتاب عبارة عن استعراض ودراسة وافية لكافة الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمملكة الصليبية، وهو يمتاز باعتماده على طائفة كبيرة ومتنوعة من المصادر الأصلية والدراسات الحديثة عن الحركة الصليبية. وقد صدر فى طبعة إنجليزية ، وأخرى فرنسية وثالثة عبرية، كما تمت ترجمته إلى العربية كما أشرنا من قبل.

1- Outremer studies in the history of the Crusading Kingdom of Jerusalem , Edited by B.Z. Kedar, H.E Mayer, R.C. Smail, yad Izhak Ben- Zvi - Institue , Jerusalem, 1982, pp. 7-13 .

أما كتابه الثانى (عالم الصليبيين) فهو الذى اخترناه محورا لهذه الدراسة وذلك لسببين رئيسيين:

أولهما أنه كتب فى اللغة الإنجليزية ونشر فى نيويورك والقدس فى وقت واحد بقصد مخاطبة عامة المثقفين من قراء الإنجليزية ، وهم كثرة مثيرة . وقد وضع الكتاب فى لغة سهلة سلسلة وأسلوب جذاب. بحيث يمكن توجيه الدعاية المطلوبة من خلال موضوع ما يزال يحظى بإقبال الناس فى الغرب بسبب التراكمات الاسطورية التى نسجت حول الحروب الصليبية(١).

والسبب الثانى هو أن هذا الكتاب دراسة متكاملة للكيان الصليبى على أرض فلسطين وهو متحرر من القيود الأكاديمية بشكل أتاح للمؤلف أن بزرع بين طياته بعض المزاعم التى لاتجد لنفسها سندا من حقائق التاريخ . ولكنها تخدم الحركة الدعائية للصهيونية .

وكتاب «عالم الصليبيين» مؤلف من تسعة فصول وخاتمة، ويقع فى مائة وستين صفحة من القطع المتوسط، وهو مزود

١- انظر ما ذكره للمؤلف فى هذا الصدد "The World of the Crurades, p. 155.

بمجموعة كبيرة من الخرائط والصور التوضيحية التى تجعل من الكتاب متعة حقيقة لعامة المثقفين الذين يقرأون اللغة الإنجليزية.

ومن الأمور ذات الدلالة أن الكتاب يبدأ بفصل يحمل عنوان معبرا عن موقف المؤلف من قضية الأماكن المقدسة، وهو : «ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى» ونصه الإنجليزى: : "Three empires and four Claims" ويزداد الموقف وضوحا عندما نقرأ الآيتين اللتين صدّر بهما يوشع براور كتابه من سفر التكوين: إذ تقول كلماتها: «وقال الله ليعقوب أنا الله القدير أثمر وأكثر امه وجماعة أمم تكون منك وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى أعطيت ابراهيم واسحق ، لك أعطيها، ولنسلك من بعدك على الأرض» (١). أى أن هذا الكتاب يبدأ منحازًا لفكرة الأرض الموعودة والشعب المختار، ولنا أن نتوقع ما سيكون عليه الكتاب فى فصوله التالية.

ويرتب يوشع براور الفصل الأول من كتابه على أساس أن «... أقدار البلاد والأمم والديانات والامبراطوريات ظلّت على

١- تكوين ، ٣٥ ، ١١-١٢ .

مدى ثلاث آلاف عام، مرتبطة بالوعد العظيم المدون فى الكتاب المقدس»[1]. وهو ما يعنى، فى رأيه، أن الصراع حول الأرض المقدسة عبر العصور كان صراعا بين أصحاب الديانات الثلاث، ولأسباب دينية خالصة فهو يقول أن مفهوم الأرض الموعودة قد صار عقيدة أساسية فى الديانة الاسرائيلية ومحورا لآمالها فى الزمن الغابر، ثم يذهب إلى القول بأن هذا المفهوم قد صار جزءا أساسيا فى جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة اليهودية، وارتبطت بالديانة اليهودية على نحو ما »[2].

وإذا كنا لانفهم ما يقصده براور بـ «جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة اليهودية» فإنه قد أشار إلى أن الديانة

1- The World of the Crurades, p. 7.

٢- فى رأينا أن محاولة يوشع براور فى هذا السبيل تنسجم مع تيار عام يحاول ربط الصهيونية بالتاريخ اليهودى، ويهدف إلى إعادة تفسير التاريخ اليهودى ليناسب فكرة الصهيونية فقد قام كثيرون من المؤرخين اليهود بتفسير أحداث التاريخ اليهودى بطريقة تجعل من ظهور الصهيونية ضرورة تاريخية بل وتجعل التاريخ اليهودى كله مقدمة للصهيونية ومقدمة لظهورها ، انظر:

محمد خليفة حسن، الحركة الصهيونية - طبيعتها وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى ، (دار المعارف ١٩٨١-، ص١٢-١٤) .

المسيحية قد حملت الكتب المقدسة اليهودية إلى روما عاصمة الامبراطورية الوثنية. وهو يشير إلى أن روايات الكتاب المقدس التاريخية عن بيت المقدس وبيت لحم ، والناصرة ، وجبل الزيتون.. وغيرها جعلت هذه الأماكن تستقر في وجدان العالم المسيحى عامة لأنها ارتبطت بقصة الإله الذى تجسد على الأرض بشرا (المسيح) . ثم يشير المؤلف إلى حركة الفتوح الاسلامية فى القرن السابع، وما نتج عنها من ضم الأماكن المقدسة لتصبح جزءا من قلب العالم العربى الإسلامي، وكيف أن الامبراطورية البيزنطية تقلصت بحيث كادت تختفي فى طيات موجات الطوفان الإسلامى.

وهنا يؤكد موقفه مرة أخرى حين يقول أن مزاعم الامبراطورية البيزنطية فى الأرض المقدسة كانت قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين(١) والحقيقة أننا لانستطيع أن نوافق براور على هذا الموقف ، فلم يكن ثمة حق تاريخى للروم فى هذه المنطقة التى شهدت حضارات أقدم وأعرق كثيرا من الحضارة الرومانية ووريثتها البيزنطية . فضلا عن أن ما يذكره عن بعد الدين مردود

1- P. 9

بحقيقة أن الخلافات المذهبية بين سكان هذه المناطق والامبراطورية البيزنطية كانت عنيفة ومستمرة قبل الفتح الإسلامى[1]. بحيث اعتبر سكان المنطقة العربية الخاضعين للحكم البيزنطى أن الفتح الإسلامى كان تحريراً لهم.

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن التطورات التى أدت إلى قيام الحركة الصليبية فى أوربا وقيام الحملة الأولى . ويعلق على ذلك بقوله إن المزاعم المسيحية فى الأرض المقدسة ، سواء تلك التى يمثلها البابا أو الإمبراطور فى الشرق أو فى الغرب ، كانت تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الاسلامية التى يدعمها الحكم الاسلامى والأمر الواقع. وهو هنا يدعى أن الاسلام قد أخذ عن المسيحية واليهودية ، ويخلص إلى أن هذا هو السبب فى انقاذ الأماكن المقدسة فى فلسطين من الدمار الشامل على أيدى المسلمين[2]. وهو يتناسى عن عمد أن الدمار، بأى قدر، لم يلحق بالمناطق

١- عن هذا الموضوع انظر : ج.م هسى ، العالم البيزنطى (ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد) دار المعارف ١٩٨٢، ص١٠٥ وما بعدها.

2- p. 11.

الأخرى التى فتحها المسلمون حتى فى إسبانيا ، فلماذا يكون الدافع الدينى وحده هو الذى أنقذ الأماكن المقدسة من الدمار الشامل؟

وعلى الرغم من أن القول بأن الاسلام قد أخذ عن اليهودية والمسيحية ينطوى على كثير من المغالطات الفادحة، فإن هدف المؤلف أن يؤكد أن اليهودية هى الأساس الثقافى فى المنطقة. وهو أمر يتسق مع مسار الدعاية الصهيونية والقراءة الصهيونية للتاريخ التى تحاول سرقة تاريخ المنطقة وانتحاله للاسرائيليين بحيث تبدو الشعوب العربية عالة حضارية عليهم وعلى منجزاتهم، وقد ذكر براور هذا صراحة فى صدر هذا الفصل كما ذكرنا. ومن ناحية أخرى، فإن القول بأن السبب فى عدم تدمير المسلمين للأماكن المقدسة راجع إلى الأصول اليهودية والمسيحية فى الاسلام يحمل تهمة غير مباشرة (وغير صحيحة أيضا) ضد المسلمين ويصفهم بأنهم غزاة مخربون . ولكن حقائق التاريخ تقف بالمرصاد لمثل هذا القول الذى ردده المؤرخون الديريون فى الغرب الكاثوليكى طويلا ، فقد تم منذ زمن بعيد دحض الأسطورة التى تزعم أن العرب

اندفعوا بالسيف فى يد والقرآن فى اليد الأخرى يخيرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الاسلام أو الموت(١). فالواقع أن المسلمين لم يدمروا أى بلد فتحوه ، سواء كانت به أماكن مقدسة أم لا، وشادوا حضارة عالمية عاش العالم فى ظلها قرونا طويلة.

ولكن يوشع براور لايلبث أن يتحدث عن أن للقدس أهمية وقداسة خاصة لدى المسلمين بسبب ارتباطها بقصة الإسراء والمعراج، وكيف أنها صارت مزارا يحج إليه بعض المسلمين بسبب الظروف السياسية التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادي).

وهكذا يصل براور إلى أن المدينة المقدسة قد احتلت مكانة هامة لدى أصحاب الديانات الثلاث ، وإن كان يحاول أن يربط أصل هذه القداسة بأصول يهودية. كما أنه من ناحية أخرى يركز على أن القوة المسلحة هى التى فرضت حكم الأمر الواقع لكل من المسيحيين والمسلمين. ثم يصل إلى النقطة

١- انظر حول هذا الموضوع : نورمان كانتور، التاريخ الوسيط (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم) ، دار المعارف ١٩٨١ ، ج١ ، ص٢٣٢-٢٥٦ .

الأساسية فى هذا الفصل حين يقول : «ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة، وهو مطالب لايملك قوات عسكرية ولاموارد إمبراطورية ، ومع ذلك فهو أشد إصرارا وثباتا فى دعواه ، ألا وهو اليهودى الذى يعبر، ثلاث مرات يوميا، عن حنينه إلى الأرض المقدسة وعاصمتها ، وعن أمله فى العودة والخلاص . ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل، فقد ربط الدين الذى صان الأمة المشتتة على مدى أكثر من ألف سنة تحقيق نبوءة نهاية العالم بالنبوءة القائلة بجمع الشتات والعودة إلى الوطن...»(١).

١- محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية ، ص١٥-١٨ ، أسعد رزق ، فى المجتمع الاسرائيلى- محاولة أولية لدراسة التناقض والتكامل من زاوية علماء الاجتماع فى اسرائيل وخارجها (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١) ص٥٤-٦٦ انظر أيضا :
Arthur Hertzberg (ed.), The Zionist Idea. Ahistorical Analysis and Reader , (Atheneum , New York 1971) pp. 16-ff.

وقد فسر بعض اليهود قيام دولة إسرائيل على أنه تحقيق للوعد بالخلاص وإن كان بعض اليهود قد اعتبر هذه الدولة مجرد تحقيق جزئى فقط، وأن التحقيق الكامل للخلاص يتحقق بخلاص البشرية كلها «عندما يكتمل العالم عدالة وأخوة وسلاما تحت حكم مملكة الخلاص الإلهية. انظر:
Abba Hillel Silvern A History of Messianic Speculation in Israel , Jaom the first through the seventeenth centuries (Beacon Press, Boston 1959) pp. XX-XXI.

أليست هذه دعاية صهيونية صريحة؟ فالذين يبحثون عن صلة تربط الصهيونية بالتراث اليهودى يرون فى الحركة الصهيونية رمزا لنهاية الأيام، ويرون فيها أيضا تحقيقا للتحرر من حياة الشتات، ونهاية لحياة المنفى، وبداية للاستقرار ، وهذا كله يعنى أن فكرة الصهيونية فى تصورهم امتداد للفكر الخلاصى فى اليهودية. وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية فى الفكر وفى وسائل التنفيذ ، وهو ما يعنى أن زعماء الصهيونية استغلوا فكرة دينية هامة، هى فكرة الخلاص، وحاولوا تنفيذ هذه الفكرة بوسائل علمانية عن طريق استغلال الظروف السياسية وتطبيق سياسة الاستيطان . فالصهيونية فى رأى هذا الفريق هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأحداث التاريخية التى بدأت بالسبى البابلى . وهم بهذا يقولون بحتمية ظهور الصهيونية ، ويفسرون قيام دولة اسرائيل على أنه تحقيق لرغبة كامنة فى روح اليهودى منذ زمن سحيق، هى رغبة العودة إلى اسرائيل(١).

هذه القراءة الصهيونية للتاريخ استلزمت استغلال الأدب

1- p. 12 .

والتاريخ لخدمة الهدف الدعائى للحركة الصهيونية ، والتركيز على فكرة حلم الخلاص بالعودة إلى صهيون فى كافة الكتابات التاريخية التى يكتبها اليهود ، ولم يكن يوشع براور فى كلماته التى أوردنا سوى آحد الذين يعزفون هذه النغمة المتكررة ، فهو يواصل حديثه فى رنة مأساوية مؤثرة عن معاناة اليهود فى ظل الحكم البيزنطى وحنينهم للعودة إلى فلسطين التى يزعم أنها أرض يهودية. ويختتم براور الفصل الأول بعبارة تقول إن الأرض المقدسة ظلت أرض المطالب الدائمة لدى أصحاب الديانات الثلاث وأن الظروف التاريخية ووسائل فرض الأمر الواقع هى التى كانت تحدد من يتولى حكمها وبسط سيادته الفعلية عليها . ثم يخلص إلى أن مجموعة فريدة من العوامل السياسية والثقافية والدينية اجتمعت فى نهاية القرن الحادى عشر لتحرك أحد المطالبين بالأرض المقدسة، وهو العالم المسيحى الغربى الذى ترجم رابطة العاطفة التى تربطه بهذه الأرض إلى سيطرة سياسية بفضل القوة العسكرية فى سلسلة الحروب التى عرفت باسم الحروب الصليبية. وتصوير الأمر على أنه مجرد نزاع دينى يجرد المشكلة من جوانبها التاريخية والإنسانية والسياسية

فالواقع أن شراذم تجمعت من عدة أماكن لتحتل أرض شعب يعيش فيها منذ فجر التاريخ وقبل ظهور الديانات الثلاث نفسها بمئات السنين.

وفى تصورنا أن هذا الفصل يطرح موقفا غاية فى الخطورة. فهو يعترف بالقدسية المشتركة للأماكن المقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود ولكنه يحاول تفسير الأمر بشكل يجعل من حق من يملك القوة العسكرية أن يفرض سيطرته عليها بمنطق الأمر الواقع ، وهو منطق لو سلمنا به لبدت لنا التصرفات الاسرائيلية المعاصرة متسقة مع المنطق التاريخى الذى يحاول يوشع براور اصطناعه . ومن ناحية أخرى ، لايفوت براور الفرصة لكى يزعم أن لليهود حقا تاريخيا فى الأرض العربية ويحاول أن يسرق لهم دورا من التاريخ فى المنطقة ، مصورا اليهود وكأنهم كانوا شعبا مقهورا يعيش فى المنطقة تحت حكم الآخرين ، على حين أن الواقع التاريخى يشهد ، وبأقلام بعض اليهود مثل بنيامين التطيلى، أنهم كانوا أقلية ضئيلة تماما بحيث لايمكن أن تكون لها مقومات الأمة الواحدة أو الشعب الواحد. وقد تأكد هذا من خلال الحقيقة القائلة بأن

المهاجرين الأوربيين اليهود هم الذين شادوا الكيان الاسرائيلى فى أواسط القرن العشرين.

والفصل الثانى فى الكتاب يتحدث عن «الحملة الصليبية The Crusade" وهو يعرض للأسباب والدوافع التى أدت إلى ظهور الحركة الصليبية. والتحليل الذى يقدمه براور يكشف عن أن الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية. ولكنه يتوقف كثيرا أمام الهجمات الصليبية على الجماعات اليهودية فى مدن الراين . وبأسلوب عاطفى وتصوير مأساوى يصف لنا كيف أن الحروب الصليبية قد خلقت طقس الاستشهاد اليهودى، فبدلا من قبول التعميد الجبرى على أيدى المسيحيين ، كان الرجال اليهود يذبحون نساءهم وأطفالهم وهم يرتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون. وهو يجسد الموقف الاسرائيلى حين يصمم على ربط هذه المذابح بالهولوكوست الحديث على أيدى النازيين، ويختتم هذا السرد بعبارة تقول : «هكذا أضيفت أسماء قادة من أمثال فولكمار، وجوتشولك، واميخو[1] إلى قائمة العار الطويلة فى تاريخ أمة الشهداء.

١- هؤلاء هم قادة الجماعات الصليبية التى هاجمت اليهود فى أوربا أثناء خروج جيوش الحملة الصليبية الأولى.

هذا الاستغلال السيئ للتاريخ فى سبيل الدعاية للكيان الصهيونى سمة تكاد تكون عامة فى الكتابات اليهودية عن الحروب الصليبية كما أشرنا من قبل. كما أنها تجسد هذه القراءة الصهيونية الفجة للتاريخ

وعلى أية حال ، فإن براور يستعرض أحوال الحملة الصليبية بداية بخروج الجيوش الصليبية ومرورا بأحداث القسطنطينية حتى وصولهم إلى آسيا الصغرى وبداية المعارك ضد الصليبيين، ثم تطورات الأحداث حتى سقوط مدينة بيت المقدس والمذبحة الشنيعة التى أعقبتها، وهى مذبحة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة فضلا عن سكانها المسلمين والمسيحيين الشرقيين واليهود.

أما الفصل الثالث، فقد جعل عنوان «الصليب والهلال The Cross and the Cresecent» : وهو يتحدث فى هذا الفصل عن أن القدس قد باتت مدينة مسيحية بعد أربعة قرون من السيادة الاسلامية. ويستهل براور حديثه فى هذا الفصل عن تحويل المساجد الاسلامية والمعابد اليهودية فى الأرض المقدسة إلى كنائس ، ومنع اليهود والمسلمين من سكنى المدينة المقدسة.

هذا الفصل مكرس أساسا للحديث عن المواجهة الطويلة بين المسلمين والصليبيين، ولكن يوشع براور اختار له هذا العنوان حتى يبدو الأمر وكأنه صراع دينى بين اتباع ديانتين، والواقع أن الصراع ضد الصليبيين كان صراعا بين حضارتين، كما كان صراعا من أجل البقاء. إذ كان لابد من القضاء على الكيان الصليبى الدخيل حتى تبقى المنطقة العربية محتفظة بمقوماتها الحضارية العربية الإسلامية. من ناحية ، كما أن الحركة الصليبية كانت تطرح نفسها بديلاً حضاريًا للمنطقة العربية من ناحية أخرى. والجدير بالذكر أن الطوائف المسيحية الشرقية تنتمى إلى الحضارة العربية الاسلامية التى هى ليست مجرد دين. وقد اتخذت هذه الطوائف موقفا معاديا من الحركة الصليبية ، كما أنها عاشت فى رحاب الحضارة العربية الاسلامية وأسهمت فى صنع منجزاتها. وانتماء الجماعات المسيحية العربية لهذه الحضارة واضح فى الاتجاهات الثقافية لدى هذه الجماعات وفى عاداتها، وتقاليدها ومثلها العليا، ولم يقف الدين حائلا دون ذلك. وهو ما يؤكد أن الصراع الاسلامى/ الصليبى لم يكن مجرد صراع بين الصليب والهلال كما يذهب يوشع براور .

فى هذا الفصل يركز يوشع براور علي العوامل التى أدت إلى نجاح الحملة الصليبية الأولى، فهو يقرر الحقيقة القائلة بأن الفوضى السياسية التى أنشبت مخالبها فى المنطقة، وميراث الحقد والمرارة والشك بين حكامها، هو الذى شجع قادة الصليبيين على المضى قدما، وتدعيم وجودهم فوق الأرض العربية.

وفى ظل العجز العربى شاد الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهة القوى الإسلامية(١).

واللافت للنظر فى هذا الفصل أن المؤلف يتحدث عن فكرة الحدود الطبيعية (٢) على نحو يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الاسرائيلى ، ومن ناحية أخرى يوشع براور حريصا على استخدام الأسماء العبرية الواردة فى الكتاب المقدس للدلالة على المناطق التى

1- pp. 28-29 .

٢- يقول براور ما نصه «... لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للمملكة الصليبية ...» (p.30) ، ويكرر العبارة مرة أخرى (p.31) على نحو أكثر وضوحا حين يقول : «... ومع بداية العقد الثانى بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها فى عبارة الحدود الطبيعية...».

شهدت أحداث الحروب الصليبية [١]، دون سبب منهج معقول، لاسيما وأن أسماء هذه المناطق ، فى تلك الفترة التاريخية كانت هى نفس الأسماء العربية المستخدمة حاليا. والجدير بالذكر أن الأسماء التى استخدمتها براور هى نفس الأسماء التى يستخدمها الاسرائيليون المحدثون فى هذه المناطق ، وهو أمر لاتخفى دلالات بطبيعة الحال.

ويناقش المؤلف مفهوم الأمن للكيان الصليبى باهتمام كبير (وحافل بالإسقاطات المعاصرة أيضا) حين يقول أن استراتيجية الصليبيين قامت على أساس الحدود الطبيعية ، ففى الشمال كانت ، الحدود تمتد بين بيروت وطرابلس، وفى الشمال الشرقى كان الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن أما الحدود الشرقية فكانت أكثر من مشكلة، لأن الصليبيين لم يتمكنوا من الاستيلاء على دمشق أو حتى توطيد أنفسهم فى مرتفعات الجولان . وكانت سياسة جعل الصحراء هى الحدود الطبيعية بين مصر ومملكة بيت المقدس هى أهم مشاغل المملكة من

1- p. 31 .

الناحيـة الجنوبيـة[1]. فـهل يمكن أن تكون البنود الخـاصـة بالتـواجـد العـسكرى المصـرى فى اتفـاقـيات كـامب ديڤـيـد تجـسـيـداً لـهذه المفـاهـيم التـى اسـتـنـتـجـهـا أعـلام القـراءة الصهيونية للتاريخ ؟!

ويركـز المؤلف على فـشل القـوى العـربيـة الاسـلامـيـة فى التصـدى للصـليبيين طوال السـنوات الخمسين التـى تلت قـيام مملكة بيت المقدس بسبب عدم تعاون الحكام العرب وشكوكهم المتـبادلة ، كـمـا يـهـتم بأن يوضـح أن مـصـر، بكل مـواردها البشرية والاقتـصـادية لـم تكن ندا للأوربيين المساندين للكيان الصليبى. ثم يعرض لتطورات رد الفعل الاسلامى التى بدأت من الموصل تحت حكم الزنكيين، مـوضـحـا كـيف أن الرأى العام الاسلامى بدأ يضغط على الحكام العرب. إلى أن يصل

٢- اظهر دافيد بن جوريون اهتماما كبيرا بالصحراء الجنوبية (النقب) ، وكان رأيه منذ سنة ١٩٣٨ أنه يجب على اليهود استعمار النقب لأن الحدود المرسومة لاتكفى ، بل إنه شخصيا اختار السكن فى احدى مستعمرات النقب. عن تفاصيل هذا الموضوع، انظر : تهانى هلسة، دافيد بن جوريون ، ص١٧٩-١٨٤ . وقد ألف بعض اليهود كتابا خاصا عن هذا الموضوع كتب مقدمته دافيد بن جوريون وأودعها آراءه فى هذا الموضوع، انظر:
Morris , Yaakiv , Masters of the desert , (G.P. Putnam's Sons , New York 1961) .

إلى ظهور نور الدين محمود ومحاولات توحيد الجبهة الاسلامية التى انتهت بالاستيلاء على دمشق والتدخل فى مصر. ثم ينتقل إلى الصراع حول مصر بين نور الدين والصليبيين . ويوضح براور أهمية مصر فى حسم مصير الصراع الدائر على أرض الشام، ومحاولات الصليبيين لضمها أو ضمان حيادها. وهو أيضا يتحدث فى كلمات واضحة عن أن اتحاد مصر وسوريا والعراق ضد اللاتين كان هو الخطر الحقيقى ضد أولئك الغزاة.

يتضح هذا الموقف ليوشع براور من وحدة القوى العربية الاسلامية فى مصر وسوريا والعراق من خلال استعراضه لمحاولات صلاح الدين يوسف بن أيوب فى هذا الصدد، وما قام الصليبيون من محاولات التآمر مع أعداء صلاح الدين للإطاحة به حتى تفشل هذه الوحدة، على حين بدأت قواتهم تشن غارات نشيطة على مناطق الحدود المصرية والبحر الأحمر (١).

١- الجدير بالذكر أنه حدثت فى العالم العربى حركة اتحادية بين مصر وسوريا والعراق، وهى «الوحدة الاتحادية» التى أبرمت اتفاقيتها سنة ١٩٦٣ (١٧ أبريل)، وقد انزعجت اسرائيل من هذا الاتحاد الذى كان شبحه يطاردها منذ قيامها ، ولكن للأسف لم تصدق مخاوفها إزاء هذه الوحدة التى لم تلبث أن تجمدت على آية حال بدأ بن جوريون =

ومن المهم أن نشير إلى محاولات براور للتقليل من شأن صلاح الدين الأيوبى ، على الرغم من أنه يغلف هذه المحاولة بكلمات رقيقة، فهو يقول: «كان صلاح الدين، بطل التاريخ الاسلامى زعيما وقائدا عسكريا متوسط القيمة، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو ، محبا للغير يبعث على الثقة. كان صلاح الدين يجسد الأخلاق الإسلامية فى عيون المسلمين، فهو الزعيم المثالى للحرب المقدسة ضد الكفار..»(١). والواقع أن براور يحاول النيل من أبطال التاريخ الاسلامى ونماذج النضال فيه كما يحاول النيل من الشعوب العربية فى ثنايا صفحاته كما سنرى.

وبعد حطين وسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين

= يكتب لزعماء الدول عن اخطار هذا الاتحاد، وطالب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى بضمان حدود دول الشرق الاوسط، وبدأ يبحث عن المساندة الفرنسية، أو الامريكية من خلال التحالفات أو المعاهدات، أنظر : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون، ص١٥٧ - ١٥٨ .
Bar Zohar ; Michael ; The Anmed Prophet : A Ben Gurion , Arthur Barker Ldf . London, (1966), pp. 292294 .

١- p. 37 ومن المهم أن نشير إلى أنه يذكره باسم صلاح الدين الكردى Saladin the kurd

يتعرض المؤلف لدور الظهير الأوربى فى الحملة الثالثة التى جاءت كرد فعل أوربى تجاه انتصارات صلاح الدين. ثم يعرض لما حدث بعد وفاة صلاح الدين من تفكك فى العالم العربى الاسلامى أتاح للصليبيين فرصة التقاط الأنفاس.

ويهتم يوشع براور فى هذا الفصل أيضا برصد الأحوال داخل أوربا باعتبارها الظهير المساند للكيان الصليبى، وكيف أن النتائج الهزيلة للحملة الصليبية الثالثة أفرخت أزمة ايديولوجية جعلت الشكوك تساور البعض حول الالهام الإلهى الذى يزعمه الصليبيون. ثم يستعرض ظروف الحملة الرابعة التى هاجمت القسطنطينية ، والفشل الذى أصاب الحملة الخامسة، ثم الحملة السادسة التى قادها الامبراطور فردريك الثانى المحروم من البابوية ، ورغم هزال جيشه فإنه نجح فى عقد اتفاقية مع السلطان الكامل الأيوبى تقضى بأن تكون القدس للصليبيين دون مسجدها وساحتها، كما يأخذ الصليبيون بيت لحم والناصرة. وعلى الرغم من ذلك كان الكيان الصليبى يمضى فى طريق الغروب. وهنا يظهر مرة أخرى دور التمزق العربى فى حفظ الكيان الصليبى وتأجيل سقوطه إذ يقول براور «... وكان من حسن الطالع أن العالم

العربى المجاور لم يحرز تقدما ، فقد صارت دمشق هى محور المعارضة لمصر، كما أن إمارة شرق الأردن كانت فى سبيلها لتغيير حلفائها . وكان الجميع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء ومن سوء حظ المملكة اللاتينية أنها كانت تفتقر إلى الزعيم ....»(١). وبعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحديث عن ظهور دولة سلاطين المماليك وظهور بيبرس الذى أحاطت جيوشه ببقايا الصليبيين من كل اتجاه ، ثم سقوط القلاع الباقية حتى ينتهى الوجود الصليبى على الأرض العربية. فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون.

واللافت للنظر حقا فى هذا الفصل، عامة ، هو أن المؤلف يتصور أن الصليبيين قد بنوا سياستهم على مفهوم الحدود الطبيعية التى يسهل الدفاع عنها، وهو ما يبدو لنا بمثابة اسقاط معاصر للتصورات الاسرائيلية ونظرية الأمن الاسرائيلية التى تعتبر فكرة الحدود الطبيعية التى يسنها الدفاع عنها من أهم أركانها. وثانيا، يسترعى الانتباه اصرار المؤلف فى هذا الفصل ، وفى غيره من فصول الكتاب، على استخدام الاسماء العبرية فى حديثه عن المناطق العربية، وهو

1- p. 47 .

فى تصورنا محاولة لتكريس الزعم الصهيونى بالأحقية التاريخية فى هذه الأرض. أما الأمر الثالث فى هذا الفصل فمؤداه أن يوشع براور يبرز من خلال السياق التاريخى أن فترات ازدهار الكيان الصليبى كانت مرتبطة على الدوام بتفشى الخلافات بين القوى العربية وعجز الحكام العرب عن توحيد جهودهم. وما يزال هذا هو الرهان الاسرائيلى المعاصر. كما أن محاولات الصليبيين لفصل مصر عن بلاد الشام والعراق لضمان السيطرة على المنطقة العربية ما تزال هدفا من أهداف السياسة الاسرائيلية فى عصرنا الحالى (وهو الأمر الذى حققه الأمريكيون لإسرائيل بغزو العراق واحتلاله ، وعجز الحكام العرب عن الالتقاء حتى لمجرد الكلام الذى لايمكن أن يحرر أرضاً أو يحمى المقدسات). والأمر الرابع اللافت للنظر فى هذا الفصل هو أن المؤلف يربط باستمرار بين تقلبات أحوال الصيلبيين وبين الواقع الفكرى داخل أوربا التى كانت تلعب دور الظهير للمملكة الصليبية، فهو يؤكد أن فكرة الحروب الصليبية فى أوربا كانت قد انتهت[1] وأن هذا هو السبب فى ضمور الكيان الصليبى

1- p. 50 .

واضمحلاله. ويمكن أن نربط بين هذا الموقف وبين الاصرار الاعلامى الصهيونى على الترويج للفكرة الصهيونية، وربطها بالاضطهادات أو ما يسمى بظاهرة معاداة السامية من ناحية، والإلحاح على النموذج الاسرائيلى الذى يعتبر طليعة للنظام الديموقراطى الغربى فى المنطقة العربية بزعمهم. كما أنه يفسر لنا الحرص الصهيونى على تغيير الظهير المساند بحسب تغيرات موازين القوى فى العالم المعاصر.

والفصل الرابع فى الكتاب عنوانه «شرق المتوسط The Levant». ويتحدث فيه براور عن حياة الصليبيين تحت سماء الشرق. وأهم ما فى هذا الفصل تناوله العام لما يمكن أن نطلق عليه «الغربة الحضارية للمستوطنين الصليبيين». وهو فى هذا الفصل يتناول المجموعات والطوائف السكانية والدينية والمذهبية التى يتكون منها المحيط البشرى الذى عاش الصليبيون فى إطاره . وهو يوضح أن الشرق ، المسلم والمسيحى، كان هو الاكتشاف الكبير بالنسبة لأبناء الغرب اللاتينى القادمين بأسلحتهم تحت راية الصليب.

ومن الأمور المهمة فى هذا الفصل ما ذكره براور من أنه بين الطوائف المسيحية الكثيرة فى بلاد الشام، لم تكن هناك

طائفة أقرب إلى الصليبيين من الطائفة المارونية [1]، وهى الطائفة التى قبلت الخضوع لبابا روما سنة ١١٨٤م. وعلى الرغم من فترات التباعد بين مسيحيى لبنان والغرب، ظل المسيحيون المارونيون اللبنانيون على اتصالهم بروما ، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا للمؤثرات الأوربية أكثر من أية طائفة مسيحية أخرى فى المنطقة العربية، وهو موقف ما يزال قائما حتى اليوم.

والأمر الثانى المهم فى هذا الفصل هو أن يوشع براور حين يتحدث عن اليهود فى عصر الحروب الصليبية ، يحاول الايهام بأن كافة الطوائف اليهودية (ربانين وقرائين وسامرة) قد انضموا إلى قوات المسلمين لكى يدافعوا عن مدنهم، وأنهم دفعوا ثمنا غاليا فى القدس وحيفا فى سبيل صد الغزاة [2]. وقد تعرضنا لهذه المحاولة بالتفنيد فى صفحات سابقة، ولكن المؤلف لايمل من تكرارها بين ثنايا صفحات كتابه، ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه المحاولة لاتقف على أرض من الحقائق التاريخية.

1- p. 63 .
2- p. 64 .

الفصل الخامس يتحدث عن «المثال والواقع – Ideals and Realities" وهو يبدأ بالحديث عن أن المستوطنات الصليبية تحت سماء الشرق كانت قد وجدت بقصد البقاء ، كما يتحدث عن أنه فى كل يوم كان يمر «... يفرض على الاقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعا جديدا فى سبيل البقاء...» (١). ويترتب على هذه المقولة نتيجة مؤداها أنه كان لابد للكيان الصليبى من اليقظة المستمرة والحذر من الهجوم الخارجى ، أو الثورة والتخريب فى الداخل، وهو ما أدى بدوره– منذ البداية – إلى تنظيم الدولة والمجتمع فى سبيل الحرب (٢).

وأهم موضوع يناقشه هذا الفصل هو مشكلة الموارد البشرية فى المستوطنات الصليبية ، وفى رأى يوشع براور أن هذه

1- p.72.

٢– كانت أول مهام بن جوريون بعد إعلان قيام الدولة اليهودية فى فلسطين أن جعل نفسه القائد العام للقوات اليهودية ، وفى ٢٦ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن عن قيام «جيش الدفاع الاسرائيلى» ومنذ ذلك الحين تمت صياغة الدولة والمجتمع فى اسرائيل من أجل الحرب . انظر : تهانى هلسه، دافيد بن جوريون، ص٨٣ – ٩٤ ؛ حامد ربيع دراسات أساسية، ص٦٣–٧٨ حيث يناقش ارادة التحدى والقتال فى المجتمع الاسرائيلى وصياغة النظام السياسى لاستيعاب المواجهة المصيرية.

المشكلة كانت بمثابة الفشل الصليبى الأكبر، كما أنها كانت السبب الجوهرى فى الافلاس المطلق للكيانات اللاتينية فى الشرق. وهو يستعرض أطوار ومرال مشكلة الموارد البشرية والصعوبات الكثيرة التي كانت تعوق نمو الموارد البشرية فى المستوطنات الصليبية، فبعد الحملة الأولى لم تكن استجابة أوروبا الغربية لتوسلات المملكة اللاتينية فى الشرق كافية للوفاء باحتياجاتها. وبدلا من طوفان المهاجرين الجدد الذى كان متوقعا عقب نجاح الحملة، لم ترحل إلى الشرق سوى جماعات هزيلة. ولم يأت بآلاف الناس إلى الشرق مرة أخرى سوى تلك الحملات الصليبية التى أعقبت الكوارث ، مثل سقوط الرها، ثم سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين. ولكن لم يبق بالأرض المقدسة سوى جزء صغير للغاية من الحشود التى كانت تشارك فى الحملات الكبيرة، على يرجع الباقون إلى أوروبا.

بلغ العدد الكلي للصليبيين فى المنطقة العربية حوالى ربع مليون نسمة، كانت نسبتهم داخل حدودهم بالقياس إلى أعدائهم واحد إلى خمسة تقريبا. وهنا يبرز موقف يوشع براور بشكل أكثر وضوحا إذ يقول : «... وبينما يبرهن هذا

التقييم الاحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى ، فإن هذا التقييم الاحصائى نفسه يبدو أكثر أهمية عن حقيقته حين ننظر إليه من خلال الاطار الجغرافى للشرق الأدنى، حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون ملايين المسلمين من النيل إلى بلاد النهرين . ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم على مدى أكثر من مائة وخمسين عاما ... ذلك أن محاولات توحيد القوى الاسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين، لم تكن تعمر طويلا بعد وفاة صاحبها . ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكى بيبرس فى منتصف القرن الثالث عشر، عندما فرض الوحدة الصارمة...»[١].

هذا هو حل المعادلة الصعبة المتعلقة بمشكلة القوى البشرية فى رأى يوشع براور ، التمزق والتشرذم الاسلامى يضمن البقاء لربع مليون مستوطن صليبى، فإذا تمت الوحدة العربية الاسلامية كان ذلك إيذانا بالقضاء على الكيان الصليبى .

1- p. 74 .

ولعل هذا التفسير يوضح لنا مشكلة على جانب من الأهمية بالنسبة للكيان الاسرائيلى المعاصر، وهى مشكلة الهجرة اليهودية من شتى أنحاء العالم إلى اسرائيل . فالكيان المزروع فى أرض غريبة، ووسط محيط بشرى معاد لابد من حقنه باستمرار بالقوى البشرية الوافدة، إلى جانب العمل على تمزيق آية محاولات وحدوية، أو أية محاولات تكوين المحاور بين القوى المعادية فى المنطقة وهو أمر نستطيع أن نفهمه بوضوح من خلال الضجة التى تثيرها الصهيونية حول حقوق الانسان ازاء القيود التى كان يهود الاتحاد السوفييتى يتعرضون لها، فيما يتعلق بالهجرة إلى إسرائيل من ناحية، وتلك الجهود الصهيونية النشطة لابقاء تيار الهجرة إلى فلسطين مستمرا متدفقا منذ بداية تنفيذ خطة اقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين من ناحية أخرى(١).

١- كان عدد يهود فلسطين عند صدور وعد بلفور الشهير حوالى خمسين ألف نسمة، يقابلهم من العرب ستمائة وخمسون ألف نسمة ، أى أكثر من اثنى عشر ضعفا . وقد زاد عدد اليهود منذ ذلك الحين بمعدل سريع جدا، انظر : عادل حسن غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧-١٩٣٦ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م) ص٢٥ وما بعدها ، وقد لعب السير هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى اليهودى دوراً هاماً فى تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين آنذاك، المرجع نفسه، ص٧٣-٧٦ ، انظر أيضا : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون ، ص١٩-٢٠ .

ثم يشرح براور كيف أن التفوق العددى للمسلمين جعل الصليبيين فى حال حرب دائمة، كما اضطرهم للسكن فى مواقع محصنة، كما أنهم رصعوا جميع الطرق والممرات الرئيسية بالحصون التى كانت أشبه بنقاط المراقبة أو مراكز الشرطة . هذه العسكرة الواضحة للكيان الصليبى يمكن مقارنتها من عدة وجوه بالعسكرة السافرة للكيان الاسرائيلى، ولاشك أن الجدار العازل العنصرى الذى تقيمه إسرائيل ، بموافقة أمريكية وتمويل أمريكى، تأكيد لروح التمترس التى تسيطر على الكيان الصهيونى الغريب المزروع فوق الأرض العربية فى فلسطين وهو أمر سوف يتجلى بوضوح أكثر عند حديثنا عن الجوانب الحربية لدى الصليبيين.

ويختتم المؤلف حديثه فى هذا الفصل بالقول بأن وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق كان يعتمد على أوربا، ليس من أجل الهجرة فحسب وإنما من أجل العون المادى أيضا. وهو يكشف عن أن هذه المساندة الأوربية كانت قوية طالما كانت العقائد التى أفرزت الحروب الصليبية قوية فى وجدان شعوب أوروبا . ولكن رياح التغيير التى هبت على أوربا مع مطلع القرن الثالث عشر جعلت أوربا تقطع صلاتها العاطفية

بمستعمراتها الشرقية «... ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى والنبوءات مثل سان لوى (لويس التاسع) ، ولفترة وجيزة فقط. ولكن الحركة حينذاك كانت تسير صوب نهايتها المحتومة ...»(١).

هذه الكلمات التى ساقها المؤلف فى نهاية الفصل الخامس تشى بأن مشكلة الظهير الأوربى والأمريكى ومدى أهميته، تشكل جانبا من أهم جوانب الرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية. إذ إن الكيان الصهيونى يعتمد على الغرب أيضا، ليس من أجل العون البشرى فقط وإنما من أجل العون المادى كذلك. وعلى الدوام يحرص الاسرائيليون على وجود قدر كبير من التوازى والتوافق ين مصالحهم ومصالح الظهير الذى يساندهم ، ولعل هذا هو ما يجعلهم يغيرون حلفاءهم حسب قوة أولئك الحلفاء من جهة، وحسب مصالحهم فى المنطقة العربية من جهة أخرى.

ويعكس كلام يوشع براور أيضا الخوف الإسرائيلى مما يطلق عليه القنبلة السكانية الفلسطينية أى زيادة معدلات المواليد الفلسطينيين بالشكل الذى يحول اليهود إلى أقلية

1- p. 82 .

داخل الدولة اليهودية. وهذا هو السبب الرئيسى فى خطة شارون لفك الارتباط مع الفلسطينيين، والإنسحاب الأحادى من قطاع غزة ، وإقامة جدار الفصل العنصرى.

الفصل السادس يتناول «الحياة فيما وراء البحر " Life in Outremer" وفى هذا الفصل يبدأ براور بالحديث عن أن الجيل الثانى والجيل الثالث من المستوطنين اللاتين ، والذين عرفوا باسم «البولان Poulins[١]» كانت كلمة «الوطن» بالنسبة لهم تعنى الأرض المقدسة. أما أوربا- الوطن القديم- فكانت مجرد مكان ترتبط به أصولهم البعيدة[٢]. بيد أنه ما يلبث أن يناقض نفسه حين يقول أن حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها كانت انعكاسا لأوربا ، ولفرنسا على وجه التحديد «... فقد نشأ فى ظل نفس التعاليم الدينية، ولقن نفس مبادئ العقيدة ، ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية اعتمادا على نفس الأساطير والقصص الدينى، وروايات البطولة وأشعار البلاط التى يتذوقها قرينه فى أوربا الغربية. وهكذا برزت إلى الوجود فرنسا ما وراء البحار "...France d' Outremer[٣]".

١- يمكن ترجمة هذا المصطلح أو فهمه بمعنى «الأولاد».

2- p. 84 .

3- p. 84 .

إن هذه الفقرة التى يبدأ بها براور حديثه عن المستوطنين الصليبيين تحت سماء الشرق تكشف عن أن هذا الكيان الغريب كان يرتبط وجدانيا وثقافيا بالغرب الذى اعتبره طليعته

فى الشرق . وهو ذات الموقف الذى نلمسه الآن داخل اسرائيل لاسيما بالنسبة لأولئك اليهود القادمين من دول الغرب الأوربى والأمريكى . وعلى الرغم من محاولة الصهيونية الدؤوب لاختلاق هوية قومية اسرائيلية، من خلال انتحال التراث العربى فى المنطقة ومن خلال اعادة صياغة التاريخ، ومن خلال سرقة الفولكلورى العربى . وعلى الرغم من أن البيئة لعبت دورها فى تشكيل حياة المستوطن الاسرائيلى، كما لعبت دورها فى تشكيل حياة المستوطن الصليبى من قبل، فإن انتماءات هذا المستوطن أو ذاك لم تكن للحضارة السائدة فى المنطقة. وهو أمر طبيعى بحكم الغربة الحضارية للكيان الاستيطانى ، وإنما كانت هذه الانتماءات للمجتمع والحضارة اللذين يمثلان الظهير المساند باعتبار أن المستوطنين نتاج لهما . وربما يكون براور قد طرح على نفسه سؤالاً يقول: هل يمكن اعتبار إسرائيل جزءا من العالم

العربى ، أو حتى «منطقة الشرق الأوسط» حسب المصطلح الغربى؟!!

بعد ذلك يعرض يوشع براور مظاهر الحياة فى المستوطنات الصليبية، ويبدأ بالحديث عن أن المنازل والقلاع التى سكنها الصليبيون فى بلاد الشام كانت ملكا للمسلمين قبل الغزو واضطروا إلى هجرها . ولاتهمنا في هذه الدراسة تفاصيل هذا الفصل على الرغم من أنه يقدم معلومات ممتعة ومهمة عن حياة الصليبيين في بلاد الشام. وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن المؤلف باحث متمكن من أدوات البحث بالقدر الذى جعله يعطينا صورة تفصيلية عن أدق معالم الحياة اليومية في المستوطنات الصليبية. ومن الأمور اللافتة للنظر فى هذا الفصل أن ملابس الصليبيين كانت أوربية في أساسها ، كما كانت تتغير في طرزها تبعا للطرز الأوربية. وكان احساس الصليبى بهويته الجنسية وغربته الحضارية عميقا لدرجة أنهم كانوا يمنعون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز. وهذا التمسك بالعادات الغربية عبر عن نفسه أيضا فى مقاومة اللاتين للعادة الشرقية فى إطلاق الذقون. فبينما كان من اشتركوا في الحملة الأولى ملتحين،

كما كانت العادة فى أوربا آنذاك ، سار المستوطنون الصليبيون فى منتصف القرن الثانى عشر على العادة الأوربية فى حلق الذقون، وصارت وجوههم الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لهم، ومحطا لاحتقار الشرقيين وامتعاضهم فى الوقت نفسه(١).

ولاحاجة إلى التدليل على أن التمسك بالمظاهر الأوربية فى الملابس والشكل كان يتمشى مع الاحساس بالانتماء الثقافى والوجدانى للغرب من ناحية، وبالغربة الحضارية فى المنطقة العربية من ناحية أخرى. وتمسك الصليبى بمظاهر هويته الأوربية كان، فى تصورنا، دفاعا تلقائيا عن الذات الحضارية فى وسط حضارى مختلف ومتفوق ، ومعاد أيضا. كما أن تمسك المجتمع الاسرائيلى المعاصر بمظاهر الحياة والثقافة الغربية ، والقول المستمر بأن المجتمع الاسرائيلى يبنى نفسه على أسس ديموقراطية ، متخذا من المجتمعات الأوربية قدوة ونموذجا ، تكشف عن مثل هذا الموقف الذى تدعمه مظاهر الحياة الأوربية الواضحة فى هذا المجتمع، وذلك على الرغم

1- p. 87 .

من تسليمنا بأن المجتمع الاسرائيلى يعيش فى وسط حضارى مختلف، ولكنه متخلف وإن كان معاديا .

وبقية ما يتناوله الفصل السادس يتحدث عن طوائف السكان، وأسواق المدن والاحياء الايطالية، وقوانين الزواج ، فضلا عن الحرف التى مارسها أولئك السكان.

أما الفصل السابع فى كتاب عالم الصليبيين فلست اعتقد أنه يهم هذه الدراسة كثيرا ، إذ إنه يتناول موضوعا من موضوعات تاريخ العصور الوسطى، وإن كان يرتبط بالحركة الصليبية، عنوانه « قصص الفروسية والنظم العسكرية» The Romance of Chivalry and the Military orders ويتحدث فيه عن الفروسية كأحد عوامل ظهور الحركة الصليبية. وتطور مفهوم الفارس والفروسية والروايات الخيالية التى نسجت حول الفروسية والفرسان. ثم يرصد تأثير الحروب الصليبية على تطور الفروسية. ثم يتحدث عن نظم الرهبنة العسكرية التى كانت من أهم الدعامات العسكرية للمستوطنات الصليبية .

ويتميز الفصل الثامن بأهمية خاصة فى موضوع دراستنا، لأنه حافل بالاسقاطات المعاصرة ، فعنوانه «القلاع

والشئون الحربية Castles and Warfar» ويبدأ براور هذا الفصل بعبارة ذات دلالة خطيرة ، فهو يقول : «أن الأقلية التى تسعى إلى حكم أغلبية معادية ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى أعداد صغيرة نسبيا ، وفى أماكن حصينة. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الوسيلة لم تكن كافية لإحكام السيطرة على المناطق الريفية، ولضمان الاتصالات ، وجعل الوجود الفرنجى حقيقة ملموسة . ولهذا رصع الصليبيون شبكة الطرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبة التى هي أقرب إلى مراكز الشرطة منها إلى القواعد العسكرية. وكان من السهل أن تتصل الحصون والحاميات ببعضها من السهل إلى الجبل عن طريق إشارات النيران أو الحمام الزاجل... وكانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها ...»(١).

هذه الفقرة تكشف عن أن العقلية التى تحكم المستوطن الذى يزرع في محيط بشرى معاد بقوة السلاح، يفكر بنفس العقلية التى يفكر بها أى مستوطن آخر فى أى زمان ومكان.

1- p. 121 .

وإذا كـان هذا هو أحـد وجـوه التـشـابه البارزة بين الكيـان الصليبى والكيان الصهيونى ، فإن كلمات يوشع براور تكشف عن أنه يتحدث كاسرائيلى معاصر يعيش فى ظروف تتشابه من جوانب عديدة مع ظروف الصليبى الذى عاش على الأرض ذاتها قبل سبعة قرون وتكاد تلمس فى حديثه الاسقاطات المعاصرة التى تفرزها معايشته لمشاكل الأمن فى الكيان الصهيونى، فالنقاط الحصينة، وشبكة الشرق السريعة ، والجيش القادر على الحركة السريعة والمسلح بأحدث الأسلحة من أهم ملامح الحياة الاسرائيلية، وهى أمور لاشك فى أنها تؤثر على رؤية المؤرخ للأحداث المشابهة التى دارت على المسرح نفسه فى العصور الوسطى(١). كما أنها تشكل الخطوط الأساسية فى قراءته لتاريخ تلك الظاهرة.

١- مما يدعم ما ذهبنا إليه فى أن كلمات براور تحمل اسقاطات معاصرة أن مؤرخا متخصصا فى التاريخ العسكرى فى العصور الوسطى، هو R.C. Smail كتب عن الشئون الحربية، وعن القلاع على وجه الخصوص، عند الصليبيين بأسلوب مختلف تماما، إذ يقول : «كل الحكومات تقوم على القوة على نحو ما وربما كان هذا هو الأساس الأول الذى قامت عليه السيادة الفرنجية فى بلاد الشام. ذلك أن الغزو الخارجى كان خطرا ماثلاً، كما أن الشعوب الخاضعة لم تكن أبدا راضية عن الحكم اللاتينى، فقد اظهر هؤلاء الناس فى مناسبات هامة =

على أية حال ، يمضى المؤلف فى بيان حقيقة أن هذه الحصون والقلاع لم تكن جديدة تماما، إذ كانت فى حقيقتها حصونا قديمة بناها المسلمون قبل الغزو الصليبى، وانحصر دور الصليبيين فى تطوير نظم الدفاع بها. ثم يتحدث عن شكل القلاع وتحصيناتها الداخلية والخارجية، لينتقل بعد ذلك إلى مناقشة تطور الفنون القتالية عند الصليبيين بفضل الصدام بين الشرق والغرب على أرض فلسطين، وهو صدام تم على كافة المستويات.

يتحدث براور بعد ذلك عن تركيب الجيش الصليبى موضحا كيف أن القوة الأساسية فيه كانت تتشكل من الفرسان ذوى التسليح الثقيل ، وهو نتاج لتطور اقتصادى/ اجتماعى جرى على أوربا فى تلك الآونة وجعل من الفرسان

= عدم ولائهم أو عداوتهم السافرة. وتجسدت القوة فى جيش الميدان الصليبى من ناحية، وفى الأماكن الحصينة من جهة أخرى...» وعلى الرغم من أن سميل يتحدث عن نفس الموضوع الذى يعالجه براور، ويتفق معه كذلك فى أن الجيش المتحرك والقلاع الحصينة هى دعائم القوة الصليبية، فإنه لايستخدم نفس أسلوبه الذى يكشف عن نفسية واحد من المستوطنين على الأرض نفسها، انظر:

R.C. Smail, Crusading Warfare 1097-1193, (Cambridge University Press 1978), pp. 204 - ff.

الثقيلة صفوة بين العسكريين. ثم يوضح كيف أن احتكاك الصليبيين بالمسلمين أدى إلى عدة تغييرات عسكرية عند الصليبيين تجلت واضحة فى مجال التكنيك ومجال التسليح.

وفى سياق هذا الحديث يسوق يوشع براور فقرة عن المصريين يحاول فيها زرع المقولة الخاطئة بأن المصريين ليسوا أهلا للقتال، فهو يقول «... ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكنيك العسكرى لدى الصليبيين ، أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية نتاجا للصدام مع القوة العسكرية المصرية- التى كانت تمثل أقوى خصم فى الشرق- وإنما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش بلاد ما بين النهرين. إذ لم يكن المصريون أبدا أمة عسكرية ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو العثمانى لمصر كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتها المسالمة...»(١).

والأسباب التى تدعو يوشع براور إلى محاولة زرع هذه المقولة تبدو واضحة جلية إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن المصريين هم أقوى خصم يواجهه الاسرائيليون حاليا. بيد أن ذلك لايعفينا من أن نتصدى لهذا القول المغرض ، فالثابت

1- pp. 129-130 .

تاريخيا أن الصليبيين لم ينجحوا فى حملتهم الأولى سوى بسبب حياد الفاطميين بل والتنسيق بينهم وبين الصليبيين باعتبار أن الأتراك السلاجقة عدو مشترك للجانبين [1]، كما أن الهجوم المصرى على بيت المقدس وانتزاعها من السلاجقة قبيل الهجوم الصليبى عليها ، وما نتج عن ذلك بالضرورة من تدمير تحصيناتها ، هو الذى سهل لصليبيى الحملة الأولى أخذها بعد حصار دام خمسة أسابيع فقط.

كذلك فإن مصر بمواردها البشرية والمادية هى التى أتاحت الفرصة لحصار الكيان الصليبى حين انضمت إلى سوريا والعراق لخلق الجبهة العربية الاسلامية الواحدة التى قادها صلاح الدين فى هجومه على الصليبيين، ذلك الهجوم الذى أسفر عن استرداد القدس وانكماش اللون الصليبى على خريطة المنطقة العربية . فضلا عن أن الجيوش المصرية هى

١- عن هذا الموضوع انظر:
Archives de l'Orient Latin ,I, p. 162; Runciman, A hist . of the Crusades, I, pp. 229-230, 267 .
وكذلك : سعيد عاشور «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية»، فى كتابه بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى(بيروت ١٩٧٧)، ص١٦٥-٢٢٣ .

التى تولت القضاء على الكيان اللاتينى على أرض الشام زمن السلطان الظاهر بيبرس ، والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل ... على التوالى . ويبدو أن يوشع براور يتجاهل طبيعة تكوين جيوش ذلك الزمان فى كل أنحاء الدنيا. فقد كان الفرسان المحترفون عماد تلك الجيوش، ولم يكن مهما أن يكونوا من أبناء البلاد نفسها ، وإنما ينبغى أن يكونوا من المسلمين أبناء دار الاسلام. وهو أمر كان يحدث فى الامبراطورية البيزنطية وفى الغرب الأوربى الكاثوليكى أيضا. ولكن ذلك لايعنى أن المصريين لم يشاركوا فى الحرب، فالقبائل العربية فى مصر جزء من كل هو الشعب المصرى، كما أن قسما هاما من اقسام الجيش المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان يتألف من المصريين(١). فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتردد كثيرا فى ثنايا مصادر التاريخ ذلك العصر عن خروج المجاهدين والغزاة من المصريين فى البحر لقتال

١- انظر : قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى- عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩م) ص١٩-٢٠ وكذلك:
E. Ashtor , A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages (Collins, London 1976), pp. 282-84 .

الفرنج، ومهاجمة شواطئهم ، واعتراض سفنهم، وما يتواتر كثيرا فى هذه المصادر نفسها عن أن المطوعة أى المتطوعين فى الجيوش المصرية فى المعارك الكبرى مثل عين جالوت كانوا أكثر عددا من الجنود النظاميين، فإن خطأ يوشع براور(وهو خطأ مقصود) يبدو فادحا.

وعلى الرغم من أن هذا الموقف الاسرائيلى من المصريين يكشف نفسه بنفسه، فإننا ينبغى أن نذكر المؤرخ الاسرائيلي بمنجزات المقاتل المصرى ضد الكيان الصهيونى فى حرب الاستنزاف ، ثم فى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣م. وعليه أيضا أن يتذكر أن هذا المقاتل قد تفوق على المقاتل الاسرائيلى الذى يحتمى خلف جدار من أكثر الاسلحة الأمريكية تطورا .

المهم أن يوشع براور يواصل حديثه فى هذا الفصل عن التطورات التى لحقت بالجيوش الصليبية من جراء الاحتكاك بالجيوش الاسلامية إبان المواجهة الطويلة بين الطرفين والتى امتدت إلى حوالى مائتى سنة فوق الأرض العربية.

الفصل التاسع والأخير فى كتاب عالم الصليبيين يتحدث عن موضوع مهم وحيوى، وعنوانه «مغامرة التجارة والعالم المتنامى The Adventure of Commerce the Expand-

ing Universe ويتناول هذا الفصل التجارة العالمية، ومدى مساهمة المستوطنين الصليبيين فى سائر وجوه هذا النشاط التجارى العالمى . ويبدأ حديثه عن الموانئ الصليبية، والرحلة البحرية من موانئ ايطاليا حتى بلاد الشام، وهى رحلة كانت تستغرق ثلاثة أسابيع . ثم يحدثنا عن الحركة فى الميناء، والجمارك ومحاولات التهريب ، ثم الفنادق والخانات والوكالات المعدة قدر الامكان لاستقبال التجار من شتى أنحاء الدنيا، والتى كان يتم بناؤها بالقرب من الميناء قدر الامكان، ويبين كيف أن حى الميناء فى المدينة كان هو «الحى الأحمر» حيث تروج مهنة الدعارة. ثم يتحدث عن الكوميونات الايطالية التى كانت بمثابة مدن داخل المدن الصليبية ... ويصف لنا الأسواق وأماكن الصيارفة فى تفصيل ممتع يعطينا صورة نابضة عن الحياة الاقتصادية الداخلية.

ولكن أهم ما فى هذا الفصل هو ما يقرره يوشع براور من أن فترة الحروب الصليبية كانت هى الأداة التى خلقت الظروف النفسية والمادية التى أدت إلى الانطلاقة الأولى نحو استكشاف الأوربيين للعالم قبل ثلاثمائة سنة من عصر

الكشوف الكبرى. وهو يكشف عن أن الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسط كانت هى الهدف المنشود للتجار الأوربيين فى بداية عصر الحروب الصليبية. وعلى مدى قرن كامل تخلصت أوربا من حجاب الغموض الذى كان يفصلها عن آسيا منذ القرن السادس وما حدث أثناءه من اجتياح الجرمان لبلدان الغرب الأوربى . ولكن سقوط الكيان الصليبى فى أخريات القرن الثالث عشر جعل آسيا تبتعد عن أوربا مرة أخرى. وظل الحال كذلك حتى القرن السادس عشر حين طرقها الايطاليون والإسبان والبرتغاليون من جديد. ويختتم حديثه عن التجارة بأن الحروب الصليبية وجرأة الايطاليين ومهارتهم ، بالإضافة إلى الغزو المغولى ، كانت عوامل ثلاثة مختلفة تفاعلت سويا لتخلق مجموعة المراكز التجارية التى أرست أسس الاتصالات الأوربية / الآسيوية، والتى خرجت منها الحركة الاستعمارية فيما بعد . *

ولكن ما لم يذكره براور هو أن هذه الآفاق التجارية الجديدة هى التى جعلت مصالح الظهير الأوربى تختلف عن مصالح الكيان الصليبى الذى لم يكن يشارك فى

النشاط التجارى العالمى سوى من خلال أبناء الكوميونات الايطالية التجارية التى كانت بمثابة دول مستقلة داخل الدولة الصليبية، كما كانت لها علاقة عضوية تربطها بالجمهوريات التجارية الايطالية التى كانت مصالحها التجارية الذاتية أقوى كثيرا من إغراء الايديولوجية الصليبية، وهو ما يفسر لنا سر العلاقات الوطيدة بين الايطاليين وسلطنة المماليك فى مصر والشام فى أخريات العصور الوسطى.

أما خاتمة الكتاب، فهى ترصد ضمور الايديولوجية الصليبية والعوامل التى أدت إلى ذلك. فالحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى فرضت نفسها على الحياة فى غرب أوربا فى ذلك الحين صرفت الأوربيين عن المساندة الحقيقية للكيان الصليبى. كما أن أوساط المثقفين فى الغرب الأوربى والتى كانت قد بدأت تعارض الفكرة الصليبية منذ فشلت الحملة الثانية ، اكتسبت مزيدا من المؤيدين الذين كانت أعدادهم تتكاثر فى أعقاب كل حملة صليبية جديدة. هذه الموجات المتوالية من النقد والمعارضة للحركة الصليبية آتت ثمارها فى نهاية الأمر

بحيث صارت الحماسة الصليبية فى أوربا شكلا فارغا دونما مضمون حقيقى.

ومع مرور الزمن كان لابد من تعديل أهداف الأيديولوجية الصليبية ، وتمت صياغة أهداف جديدة خرجت بالحركة عن مسارها الأصلى، ومن ثم كان لابد من تعيين وسائل جديدة للعمل. هذا التغير الرئيسى حدث مع غروب شمس القرن الرابع عشر، وبعد منتصف القرن الخامس عشر ارتبطت الفكرة الصليبية بحركة الكشوف الجغرافية. فقد كان الهدف هو تحقيق الاتصال المباشر بالهند وجزر التوابل بحيث تستقل أوربا عن مصر تجاريا، وفى الوقت نفسه يتم تقويض موارد مصر الاقتصادية الرئيسية المتمثلة فى دخلها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية التى كان طريقها الآسيوى/ الأفريقى ينتهى فى دلتا النيل، لقد ظلت الفكرة الصليبية الرومانسية القديمة كامنة فى غياهب الوجدان والعقل الأوربى، فقد كتب كريستوفر كولومبوس فى كراسة الحسابات الخاصة بسفينته: «اقترح على جلالتكم أن يستخدم كل الربح الذى سوف أحصل عليه من مشروعى لاسترداد بيت المقدس».

وهكذا ، ظلت الفكرة الصليبية هاجساً يؤرق أبناء الغرب الأوربى على مدى أجيال عديدة تالية ولم تكن الحركة الصهيونية التى أفرزها الغرب الأوربى نفسه، سوى تكرار جديد للحركة الصليبية سبقته مشروعات عديدة لم تتوقف منذ نهاية الوجود الصليبى فى القرن الثالث عشر، حتى بداية المشروع الصهيونى ، ثم تحقيقه فى منتصف القرن العشرين.



الفصل الرابع

البعد الثقافى للصراع العربى - الاسرائيلى

كانت أحداث الحرب والسياسة ، وما تزال ، الموضوع الأكثر جاذبية للمؤرخين ، فالمعارك العسكرية والوقائع السياسية هى أعلى الأحداث التاريخية صوتا؛ بيد أنها ليست بالضرورة أكثرها أهمية. ذلك أن الأحداث العسكرية والسياسية فى التاريخ محصلة لعوامل أخرى كثيرة على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . بل إننا لانذهب بعيداً حين نقول إن المعارك والعمل السياسى تعبير عن واقع المجتمع الذى تخوض جيوشه الحرب، ويتولى حكامه دفة العمل السياسى. وإذا كانت الحرب جزءًا من العمل السياسى، فإن السياسة ، بمعناها الواسع ، جزء من أسلوب حياة المجتمع، ومحصلة لبنيته الثقافية وأدائه الاقتصادى وتركيبته الاجتماعية.

هذا القول يصدق على أحداث الصراع العربى الإسرائيلى، كما يصدق على ظواهر تاريخية أخرى عديدة عبر الزمان، وفى كل مكان . فعلى الرغم من أن معظم الدراسات والبحوث التى تناولت الصراع العربى الاسرائيلى ركزت على الجوانب العسكرية والسياسية فى هذا المجال ، فإن الجانب الثقافى ما يزال هو الأخطر فى مداه والأعمق فى تأثيره، والأهم فى مغزاه.

والثقافة التى نتحدث عنها فى هذا المجال هى الثقافة بمعناها الحقيقى الواسع؛ أى مجمل الأفكار والقيم والمثل العليا والمعتقدات والانحيازات والخرافات التى تشكل الإطار العام لحركة المجتمع، وهذه الثقافة التى تعبر عن نفسها فى الآداب والفنون القولية والشكلية ، وفى العادات والتقاليد، والأمثال والنوادر والحكم الشعبية ، وفى التراث الشعبى عامة- هذه الثقافة هى التى تميز شعبا عن غيره من ناحية ، كما أن دراستها وفهمها يسهل عملية فهم الشعب والتعامل معه من ناحية أخرى. كما أن هذه الثقافة هى التى تشكل رؤية الجماعة الإنسانية لذاتها ورؤيتها للآخر ، ودورها فى الكون.

وعلى الرغم من أن نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م داهمت العرب، وهم واقعون تحت وطأة الاستعمار الأوربى من ناحية ، والتخلف الثقافى والتبعية للغرب من ناحية أخرى . فإن العدو الصهيونى كان متأهباً تماماً لخوض الصراع على أسس عسكرية واقتصادية وثقافية . وربما دللنا على صدق ما نذهب إليه إذا ما تذكرنا أن الفعل العسكرى الصهيونى والتحرك السياسى والدبلوماسى النشط لإنشاء الكيان الصهيونى قد جاء بعد الإعداد والدراسة والتخطيط ، وكانت الجوانب الثقافية فى الصراع هى الأسبق من غيرها، ولم تتحرك الصهيونية وحلفاؤها لإقامة إسرائيل إلا بعد التمهيد الثقافى والإعداد الاقتصادى لقيام الدولة . ولعل ما يؤكد هذا هو ما أشرنا فى الفصول السابقة عند الحديث عن وصية هرتزل لقادة الحركة الصهيونية باستخدام الفن والتاريخ لخدمة أهداف الصهاينة.

ويتضح اهتمام الحركة الصهيونية بالبعد الثقافى للصراع أثناء مرحلة الإعداد والتمهيد فى المظاهر التالية:

أولا: اتجاهات الحركة الدعائية الصهيونية :

لقد حرصت الحركة الصهيونية منذ البداية على الإمساك بزمام المبادرة فى مجال المواجهة الثقافية[1] . فقد برز الاتجاه الثقافى فى الحركة الصهيونية منذ أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر ممثلا فى حركة «بنى موسى» التى كانت تصر على أولوية العمل الثقافى والتعليمى فى فلسطين.

وعندما عقد تيودور هرتزل المؤتمر الأول للصهيونية السياسية عام ١٨٩٧م حضرته وفود عن كل جمعيات «أحباء صهيون» التى ضمت معظم القادة الذين ظهروا فى الحركة الصهيونية مثل وايزمان وغيره. ويمكن القول بأن هذه الحركة كانت القاعدة التى هيأت العقول لدعوة هرتزل ، وكانت مجالا واسعًا لتدريب القادة الصهاينة[2].

١- فى سنة ١٨٨٤م عقد مؤتمر فى مدينة كانوفتز فى روسيا، واتحدت جميع الجمعيات التى تنادى بالهجرة إلى فلسطين تحت اسم «مزكيرت موشى» وفى المؤتمر الثانى فى مدينة دروسكينيكى عام ١٨٨٧م اتخذ اسم أحباء صهيون. انظر: تهانى هلسة، دافيد بن جوريون (دراسات فلسطينية رقم٤٤)، بيروت ١٩٦٨، ص٢٢٢ / ص٢٢٣ .

١- نفسه، ص٢٢٣-٢٢٥ .

وقد حرض تيودور هرتزل صانعى السياسة الدعائية الصهيونية على «إحداث أكبر قدر من الضجة حول القضية اليهودية». كما ذكرنا من قبل وبدأت الدوائر الصهيونية تروج لفكرة ترى فى الحركة الصهيونية رمزًا لنهاية الأيام، ويرون فيها أيضا تحقيقًا لتحرير اليهودى من حياة الشتات، ونهاية لحياة المنفى ، وبداية للاستقرار . ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن فكرة الصهيونية فى تصورهم امتداد للفكر الخلاصى فى اليهودية. أى أنها مرتبطة بقدوم المخلص الذى سوف يحرر اليهود، شريطة أن تتحقق العودة إلى الأرض الموعودة (فلسطين) . وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية فى الفكر والتنفيذ؛ وهو ما يعنى أن زعماء الصهيونية استغلوا فكرة دينية هامة فى الدين اليهودى، هى فكرة الخلاص ، وحاولوا تنفيذ هذه الفكرة بوسائل علمانية عن طريق الترويج الثقافى والدعاية ، فضلا عن استغلال الظروف السياسية وتطبيق سياسة الاستيطان. واستخدام القوة العسكرية من ناحية أخرى.

والصهيونية ، فى رأى هذا الفريق ، هى الحلقة الأخيرة

فى سلسلة الأحداث التاريخية التى بدأت بالسبى البابلى[١] وهم بهذا يقولون بحتمية ظهور الصهيونية، ويفسرون قيام دولة إسرائيل على أنه تحقيق لرغبة كامنة فى روح اليهودى منذ زمن سحيق ، هى رغبة العودة إلى اسرائيل. هذه الرؤية تعتمد على تفسير إضافى يرى فى قيام الدولة الصهيونية تحقيقًا لوعد الخلاص الوارد فى سفر التكوين[٢] على الرغم من أن بعض اليهود قد اعتبر هذه الدولة مجرد تحقيق جزئى للوعد[٣].

هذه الأفكار التى تصوغ الايديولوجية الصهيونية ، تعتمد فى أساسها على مجموعة من الأكاذيب والأساطير التى تم اختراعها والترويج لها . إذ لم يكن هناك

١- محمد خليفة حسن، الحركة الصهيونية - طبيعتها وعلاقاتها بالتراث الدينى اليهودى (دار المعارف ١٩٨١م) ، ص١٥-١٨ ؛ أسعد رزوق، فى المجتمع الاسرائيلى - محاولة أولية لدراسة التناقض والتكامل من زاوية علماء الاجتماع فى إسرائيل وخارجها (معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧م) ص٥٤-٦٦ .

٢- تكوين ٣٥ : ١١-١٢ .

٣- محمد خليفة حسن، المرجع السابق ، ص١٨ ، انظر أيضا:
Arthur Hertzberg (ed.) The Zionist Ida- A Historica Analysis and Reader (N.Y. 1971) , pp. 16 . ff .

وجود مستقبل لما يسمونه إسرائيل القديمة سوى لفترة لاتزيد على ١ : ٣٠ من عمر الوجود العربى المستمر على هذه الأرض. كما أن ترتيب الحقوق على الأساطير الدينية أمر يستوجب إعادة النظر.

هذه الرؤية الصهيونية لكيفية المواجهة على المستوى الثقافى استلزمت أن يستخدم الأدب والتاريخ لخدمة الهدف الدعائى للحركة الصهيونية ، والتركيز على فكرة حلم الخلاص بالعودة إلى فلسطين فى كافة الكتابات التاريخية والأعمال الأدبية التى كتبها اليهود. لقد استخدم الصهاينة أداتين ثقافيتين غاية فى الخطورة لتحقيق هدف هرتزل لإحداث أكبر قدر من الضوضاء حول المشكلة اليهودية (١). هاتان الأداتان هما التاريخ والفن؛ فالتاريخ يحمل مصداقية داخلية ذاتية تجعله من العوامل الحاسمة فى تكوين المواقف والاتجاهات المبنية على ما يتوهم المرء أنه من حقائق التاريخ ، والفن يتسرب إلى الوجدان.

١- حامد عبدالله ربيع، دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل، (سلسلة الثقافة الفلسطينية، دمشق ١٩٧٣م) ص١١

ومنذ ذلك الحين، وحتى الآن، جرت محاولات دؤوب ومستمرة فى مجال البحث والكتابة التاريخية استهدفت ما يلى:

١- إعادة قراءة تاريخ العالم عامة ، وتاريخ المسلمين والعرب بوجه خاص . وكل محاولات التأليف التاريخى فى هذا المجال جعلت هدفها تحسين صورة اليهودى وتضخيم صورة الإسهامات اليهودية الفردية فى الحضارة الإنسانية عبر الزمان والمكان ، ومحاولة عزلها عن سياقها التاريخى ، وإقحامها فى سياق مصطنع أطلق عليه الصهاينة تعبيرًا متعسفًا هو «تاريخ الشعب اليهودى».

٢- إظهار العرب فى صورة العالة الحضارية التى عاشت فى الماضى على إنجازات (العبقرية اليهودية) ، ومحاولة إخراج اليهود الذين عاشوا فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية من بيئتهم الحضارية وافتعال هوية حضارية خاصة بهم. وهذا كله يحدث فى إطار ما يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيرى تغييب الصهيونية للعرب؛ فالصهيونية على حد تعبيره « .. تجرد الإنسان العربى عن وجوده المتعين

تجريداً متزايداً، حتى يختفى كلية، ويتحول من العربى المتخلف إلى العربى الغائب»[1].

٣- فى مقابل هذا نجد محاولة مستمرة لاختلاق ما يسمى «الشعب اليهودى» أو «الحضارة اليهودية» ، ويتكرر الحديث فى هذا السياق عما يسمى «الأدب اليهودى» و«التاريخ اليهودى» ، و«الفن اليهودى» ، كما ينشط الترويج لفكرة وجود خصائص حضارية ترتبط باليهود وحدهم . وهذه كلها أمور تجافى العلم والمنطق والتاريخ ؛ فاليهود ليسوا جنساً، كما أن اليهودية ليست جنسية ، أو مواطنة أو قومية. وقد كان اليهود على مرّ التاريخ منتشرين بين شعوب الأرض؛ شأنهم فى ذلك شأن أتباع الديانات الأخرى. وإذا كانت ثمة خصائص دينية مشتركة تجمعهم سوياً ، فإن هذا ليس وقفا عليهم. ولايرتب الدين، وحده ، حقًا فى الأرض لاسيما إذا كانت هذه الأرض مرتبطة بديانات أخرى مثل المسيحية والإسلام. وعلى الرغم

١- عبد الوهاب المسيرى، الايديولوجية الصهيونية: دراسة فى علم اجتماع المعرفة (سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٢م) ج١ ص٢٩٥- نقلا عن مقال للدكتورة لطيفة الزيات بعنوان «صورة الذات الصهيونية من واقع كتاب إسرائيلى» - مجلة المواجهة، العدد الأول - يونيه ١٩٨٢، ص٣٧ .

من أن الحركة الدعائية الصهيونية والمؤرخين الصهاينة يحاولون تقديم «الحركة الصهيونية» على أنها احدى الحركات القومية التى نشأت بين الحركات القومية الأوربية فى القرن التاسع عشر، فإنهم يحاولون القول بأن افتقارها إلى اللغة والتاريخ المشترك والأرض لايهدم أساس الادعاء الصهيونى بالقومية، وإنما يجعلها مجرد قومية تختلف عن بقية القوميات(١).

وهذه مغالطة كبرى لاتساندها حقائق التاريخ أو مفاهيم العلم. فعلى مر العصور التاريخية كان اليهود مزيجاً من عناصر جنسية ولغوية وثقافية انتشرت فى سائر أرجاء الأرض شأنهم فى ذلك شأن اتباع الديانات الأخرى. ويعنى هذا أنه يمكن لأى إنسان أن يكون يهوديا إذا اعتنق الدين اليهودى، ولكنه بالتأكيد لن يكون ضمن «الشعب اليهودى» الذى تحاول الدعاية الصهيونية أن تخلقه من غيابات الوهم وضباب الأساطير والتحيز.

١- محمد خليفة حسن، الحركة الصهيونية، ص١٢؛ انظر أيضا :
Jacob katz, " The Jewish National Movement : A Sociological Analysis", in : Jewish Society through The Ages, ed. By: H.H. Ben Sasson and Ettinger (N.Y. 1973), p. 268-269 .

فالشعب ، أى شعب ، لايمكن أن يوجد إلا على أرض واحدة ويتحدثون لغة واحدة وفى ظل تراث مشترك لجميع أفراده وأجياله يحمل الخصائص التى تجعلنا نميز شعبا عن آخر. ولايمكن لقوم يعتنقون دينا واحداً ، لكنهم ينتشرون بين أمم الأرض، ويتحدثون لغات أبناء هذه الأمم، ويلبسون ملابسهم، ويأكلون طعامهم ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم ، ويشاطرونهم التطور الاجتماعى على شتى المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية - نقول إنه لايمكن لقوم هذا شأنهم أن يزعموا أنهم شعب واحد متمايز عن بقية شعوب الدنيا لمجرد أنهم يعتنقون ديناً واحداً . ذلك أن المسلمين والمسيحيين والبوذيين والهندوس وغيرهم ينتشرون فى مساحات كبيرة من هذا العالم؛ لكننا لم نسمع أبدا من يقول - عن علم ودراية- إن المسلمين شعب واحد ؛ فمنهم العرب ، ومنهم الايرانيون ، ومنهم الأتراك ، ومنهم أبناء الشعوب الأفريقية والآسيوية، ومنهم الأوربيون والأمريكيون... ويصدق هذا أيضا على المسيحيين وغيرهم(١). ويمكن أن نقول إن

١- قاسم عبده قاسم، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى (دار الفكر ١٩٨٧م)، ص٧ .

المسلمين أمة والمسيحيين أمة، وهنا يكون الكلام منصرفًا إلى المعنى الدينى .

٤- وقد ربط هذا كله بفكرة ترتبت عليه بالضرورة مؤداها أن العبقرية اليهودية كفيلة بأن تشد العرب من وهدة التخلف التى يعيشون فيها، وأن قيادة الدولة الصهيونية لهذه المنطقة أمر طبيعى . ويلفت النظر هنا أن أهم أهداف الحركة الثقافية فى مصر كانت مقاطعة النشاط الصهيونى فى المجال الثقافى . وقد يلفت النظر بشكل حاد أيضا أن الإسرائيليين روجوا لفكرة خطيرة مؤداها أن العبقرية الإسرائيلية تستطيع أن تزرع الصحراء، وتقود قوى العمل المصرية والأموال البترولية العربية نحو التقدم والازدهار(١) .

وبدأت عشرات الكتب والدراسات والأبحاث والمقالات تخرج من المطابع لكى تروج لفكرة «الشعب اليهودى» و«العبقرية اليهودية» وتصطنع لليهود تاريخًا وحضارة مستقلتين عن تاريخ وحضارات الشعوب التى عاشوا فى

١- محسن عوض وسيد البحراوى، «أربع سنوات على التطبيع الثقافى بين مصر وإسرائيل » فى مجلة المواجهة يونيو ١٩٨٣، ص٢٨-٢٩ .

كنفها . وكانت تلك هى الملامح الرئيسية التى شكلت القراءة الصهيونية للتاريخ. ومن خلال كتابات جاكوب مان، وجويتين، وآشتور، وأيالون، وكوهين ، وسيڤان ، وبنفنستى، ويوشع براور وغيرهم، ترددت نغمة قوية تقول إن اليهود أصحاب حضارة وتاريخ تليد تمكنوا بفضله من الحفاظ على هويتهم طوال ألفى سنة . بل إن الجرأة وصلت بجويتين إلى حد القول بأن خروج اليهود من المنطقة العربية سبب تخلفها بسبب سيطرة «الغرباء» عليها طوال ألفى سنة، وأن عودة إسرائيل إيذان ببدء التقدم والرقى(١) فى هذه المنطقة.

بل إن المؤرخين الصهاينة يدعون أنهم أسسوا ما يسمى «علم التاريخ الصهيونى الجديد» . وقد ضمت آراء المؤرخين

١- انظر على سبيل المثال :

Goeitein . S.D. , A Mediterranean Society : The Jewish Communities of the Arabs worlds Portrayed by the documents of Cairo Geniza. 3 vols. University of California 1967-78 .

وكذلك كتابه : Arab and Jews in History

أيضا الكتاب الذى نشره «بن ساسون» تحت عنوان:

Jewish Society through the Ages, edited by : H.H. Ben Sasson and Ettinger., New York 1973 .

الصهاينة فى هذا الاتجاه صفحات كتاب أصدرته جامعة تل أبيب باللغة الإنجليزية بعنوان «رؤى الذات من منظور تاريخى فى مصر واسرائيل » قدم له شيمون شامير مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلى الأسبق فى القاهرة. والكتاب تسجيل لآراء المشاركين فى ندوة مصرية / إسرائيلية عقدت فى تل أبيب فى ١٥ أبريل ١٩٨٠م بمناسبة مرور سنة على المعاهدة المصرية- الاسرائيلية(١).

وأهم ما يميز «الموقف التاريخى» فى رؤية الذات الصهيونية هو تغييب أو محاولة تغييب الذات الفلسطينية تغيبًا تامًا. وهو أمر يتسق تمامًا مع القراءة الصهيونية للتاريخ، والتى تقرأ التاريخ بشكل انتقائى تستبعد منه العناصر العربية والفلسطينية لحساب الأساطير والكذب الصهيونى. وقد استخدم «يعقوب تالمون» ، عميد المؤرخين الاسرائيليين، مزيجًا من الخرافة والتاريخ وهو يتحدث عن «إنجازات الحركة الصهيونية» ؛ ففى رأيه أن الصهيونية أدت مهمة مقدسة خارجة عن سياق حركة التاريخ هى مهمة إعادة

١- لطيفة الزيات «صورة الذات الصهيونية من واقع كتاب اسرائيلى» مجلة المواجهة العدد الأول- يونيو ١٩٨٣م، ص٣٣-٥٣ .

شعب إسرائيل إلى أرض الميعاد، ولكنها اصطدمت ببعض العقبات «التاريخية» التى تخرج عن سياق «الحق الإلهى لشعب إسرائيل» ، وتبلغ به الجرأة الحد الذى يجعله يقول إن الصهيونية تجاوزت هذا كله واستطاعت أن تبنى دولتها «دون لجوء إلى العنف» على الرغم من «العقبات التى واجهتها من جانب البريطانيين المخادعين ، والمقاومة المسلحة من جانب السكان المحليين البدائيين...»(١).

ويذهب يعقوب تالمون أبعد من ذلك وهو يتحدث عن أن الصهاينة قد تحملوا عبء القيام بمهمة مقدسة - مقدرة ومكتوبة ومحتومة- هى إعادة اليهود إلى أرض الميعاد. وكان لابد أن تتعارض هذه المهمة المقدسة اللاتاريخية مع بعض الأوضاع التاريخية(٢). وهكذا يتم تفسير طرد الفلسطينيين من أرضهم بأنه تنفيذ لمشيئة إلهية لايمكن الفكاك منها. وهذه قراءة عجيبة حقًا للتاريخ إذ إنها تقول فى التحليل الأخير إن

١- نفسه ، ص٣٥ .

٢- نفسه، ص٣٥ . وهنا يقول «يعقوب تالمان» «... أود أن اعترف بأن الخطايا والنقائص التى ارتكبتها الصهيونية فى هذا المجال لاتدعو إلى النقد فحسب، ولكنها تدعو أيضا إلى التعاطف باعتبارها مثل نقائص التراجيديا الاغريقية وخطاياها المحتومة».

المذابح والفظائع والأعمال البشعة التى ارتكبتها دولة الإرهاب الإسرائيلية وماتزال ترتكبها إنما هى قدر لا فكاك منه بالنسبة لليهود.

بل إن مؤرخا مثل «جيرشون شيلوم» يحاول التمهيد لظهور علم صهيونى جديد يقوم على أساس التأصيل التاريخى لغزوات إسرائيل وتوسعاتها الإقليمية هو علم الثيولوجيا السياسية، والأحرى أن يسمى علم الأساطير السياسية(١). هذا هو لب الموقف الصهيونى من استخدام التاريخ، وهو موقف يحاول الترويج للأسطورة السياسية، والموقف الدينى، والخرافة، كما أنه فى الوقت نفسه يحاول مسخ دور العرب التاريخى أو إلغاء وجودهم التاريخى نفسه. ولدينا العديد من الأمثلة التى تؤكد هذا الاتجاه الصهيونى من استخدام التاريخ، وهى كلها تنويعات على النغمة الأساسية التى تقوم على أساسها «القراءة الصهيونية للتاريخ».

ومن ناحية أخرى، من الثابت أن السياسة الدعائية الصهيونية قد استغلت حال العداء التاريخى فى أوربا

١- المرجع السابق ، ص٤٠ .

الكاثوليكية وأمريكا تجاه المسلمين والعرب وهو تراث متراكم منذ عصر الفتوحات الإسلامية مروراً بعصر الحروب الصليبية، تزكيه المطامع الاستعمارية الأوربية والأمريكية. لتأكيد حركتها وتعميقها لحساب الصهاينة وعلى حساب العرب . كذلك فإن عدم وجود وعى عربى بمدى خطورة الحركة الصهيونية فى الدور الأول من تاريخها ، فضلا عن التخلف الذى لف العالم العربى بردائه البغيض تحت سيطرة الاستعمار الأوربى، أعطى لصانعى الحركة الدعائية الصهيونية زاداً كافياً ، ومادة غنية لرسم صورة «العربى القبيح» فى الوجدان الأوربى والأمريكى. وقد تجسد هذا فى المقولة الصهيونية الكاذبة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» .

كذلك اتجهت كتابات المؤرخين وأعمال الفنانين العاملين فى خدمة حركة الدعاية الصهيونية لدعم اسطورة معاداة السامية التى اختلقوها وروجوا لها لابتزاز القوى العالمية عامة- والأوربية والأمريكية خاصة- ودأبت الكتابات اليهودية على تأكيد السياق المفتعل الذى يجمع كل حوادث العنف ضد اليهود فى إطار ما سمى «بظاهرة معاداة السامية» ؛ على الرغم من أن حوادث اضطهاد اليهود كانت نتاجاً تاريخياً

لعوامل اجتماعية / اقتصادية وسياسية ونفسية تختلف عن الحوادث التى أفرزت غيرها من حوادث العنف ضد اليهود[١]. كما أن الكتابات اليهودية الصهيونية تجاهلت تماماً دور اليهود أو مسئوليتهم عن مثل هذه الحوادث العنيفة من ناحية، وعزلتها عن الأحداث الاجتماعية العنيفة التى كانت تشمل اليهود وغيرهم من ناحية أخرى.

وتتحدث كتابات المؤرخين وأعمال الفنانين اليهود عن العبقرية اليهودية، والتفوق الحضارى لليهود، ويزعمون أن هذا هو ما جلب عليهم الحقد والغضب من جانب أبناء المجتمعات التى عاشوا فى رحابها . فقد ربطوا بين أحداث العنف التى تعرضوا لها إبان الحركة الصليبية (من القرن الحادى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر) وأحداث العنف التى تعرضوا لها على أيدى النازيين قبيل، وأثناء الحرب العالمية الثانية [٢]. ومثلما بالغوا فى نفخ الأحداث التى

١- قاسم عبده قاسم ، «الصليبيون واليهود بين الحقيقة التاريخية والدعاية الصهيونية »، مجلة اليقظة العربية (العدد الثالث- السنة الأولى مايو ١٩٨٥م)، ص٥٩ ، ص٧٦ .

٢- Alexander M. Shapiro," Jews and Christians in the Period of the Crusades- ACommentary on the first Holocaust" in Jowrnal of Ecumencal Studies, vol, 4 , p. 736 .

تعرض لها يهود أوربا فى العصور الوسطى وأطلقوا عليها اسم «الهولوكست الأول»، فقد خلقوا أكذوبة كبرى حول مصرع ستة ملايين يهودى على أيدى النازية . وقد أظهرت الدراسات الحديثة أكذوبة القرن العشرين(١). وما يزال النفوذ الصهيونى يطارد كل من يحاول فضح هذه الأكذوبة مثلما كان الحال مع الباحث الذى كشف زيف الأسطورة فى رسالة تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات الفرنسية منذ حوالى ربع القرن، كما أن ما حدث مع المفكر الفرنسى جارودى ، والمؤرخ الإنجليزى الذى فند أكاذيبهم، ما يزال ماثلاً فى الأذهان..

هكذا استخدمت الحركة الدعائية الصهيونية معطيات الدراسات التاريخية (بعد ليَ الحقائق والتذرع بقدسية الحركة الصهيونية ومحاولة الترويج لأفكار ميتاتاريخية تدخل فى نطاق الخرافة والأسطورة)، ووظفت الصياغات الفنية لتقديم صورة اليهودى العبقرى المطرود من وطنه الذى يحتله شعب

١- أصدرت هيئة الاستعلامات المصرية ترجمة عربية لكتاب يحمل عنوان «خدعة القرن العشرين» يفند مؤلفاه كل أركان هذه الدعاية الصهيونية بمصرع ستة ملايين يهودي على أيدى النازيين.

بدائى خامل، عار من أى تاريخ، أو تراث ، أو حضارة. وبهذا كانت الحركة الدعائية الصهيونية قادرة على صياغة مشروع لإحياء ما زعمت أنه القومية اليهودية داخل تيار القوميات التى نمت فى رحاب الرأسمالية الغربية، وكان التبرير الإيديولوچى لهذه الحركة مستنداً إلى استخدام الحركة الدعائية لسلاح الثقافة ، على أساس أن الثقافة هى التى سوف تحسم النزاع على المدى الطويل . وقد تولد هذا الاهتمام لدى الصهاينة من حقيقة جسدتها إحدى مواد دستور اليونسكو تقول : «طالما أن الحرب تنشأ فى عقول الرجال فإن وسائل الدفاع عن السلام يجب أن تتأسس فى عقول الرجال أيضا»(١) مع مراعاة أن الصهيونية لاتهدف إلا لتكريس العدوان والاستيطان . وكانت بؤرة الهدف الدعائى الصهيونى من استخدام الثقافة أن تهيئ الرأى العام لقبول فكرة لمّ شمل جماعات غريبة يجمعها الدين اليهودى فوق أرض فلسطين التى زعموا أن الشعب الذى يسكنها شعب بدائى متخلف غير قادر على صياغة مشروع حضارى فوقها .

١- محسن عوض وسيد البحراوى ، «أربع سنوات على التطبيع»، ص١٠ .

ثانيًا : استخدام الدراسات العلمية لتنفيذ المشروع الصهيوني:

إلى جانب التوظيف الدعائى للتاريخ والأدب والفن فى خدمة الحركة الصهيونية، اهتم الصهاينة بدراسة المجتمع الفلسطينى خاصة، والمجتمعات العربية بوجه عام، من النواحى الاجتماعى، والأنثروبولوجية، والنفسية والاقتصادية، والسكانية، والفولكلورية ... وغيرها. وقد وضعت نتائج هذه الأبحاث فى خدمة العمل العسكرى والتحرك السياسى الذى واكب الهجوم الصهيونى لإنشاء الدولة، وما تلا ذلك من أحداث . فقد وضعت أسس الحرب النفسية ضد الفلسطينيين على أساس من دراسة النسق الأخلاقى العام، والنظام القيمى والمثل والعادات والتقاليد التى تحكم المجتمع الفلسطينى. وقد أحرزت إسرائيل نجاحًا كبيرًا فى مجال الحرب النفسية ضد الفلسطينيين فى المراحل الأولى من تنفيذ خطة الاستيلاء على الأرض العربية فى فلسطين بسبب ما توفر من دراسات أمام مخططى هذه الحرب(١).

١- كانت أول جمعية فى مجال الدراسات الشعبية، مثلا، هى «الجمعية العبرية للفولكلور والإثنولوجيا». وقد تأسست سنة ١٩٤٢م، فى طبرية بفلسطين، وكان أول رئيس لها هو «ناحوم سلوستز» الذى اشتهر بتخصصه بالمغرب العربى.

فعلى سبيل المثال ، استغل الصهاينة ما عرفوه عن أهمية قيمة العرض والشرف عند الفلسطينيين ، وأشاعوا الرعب والخوف حول هذه القيمة بحيث أخليت قرى كاملة من سكانها الفلسطينيين خوفا على نسائهم وبناتهم من اعتداءات اليهود.

ولقد وفرت الدراسات الاجتماعية والسكانية والفولكلورية معلومات هامة عن بنية المجتمع الفلسطينى، والطبيعة العشائرية التى تحكم قطاعات كبيرة منه ، وغياب مفهوم الوطن الواحد أمام قوة الانتماء العشائرى فى ذلك الحين كنا أن المعلومات عن طبيعة الفروق بين الفلسطينى ساكن المدينة والفلسطينى الريفى ، أمام البدوى ، أتاحت قدراً كبيراً من حرية العمل أمام صانعى السياسة الإسرائيلية لاختراق المجتمع الفلسطينى والسيطرة عليه ، دون تكلفة كبيرة ، فى السنوات التى أعقبت قيام الكيان الصهيونى .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن وجود الاحتلال البريطانى، وغياب الوعى العربى ، قد جعل المقاومة الفلسطينية آنذاك غير قادرة على التصدى للصهاينة .

ولم تكن الظروف التاريخية العربية فى صالح الفلسطينيين أو العرب ، بسبب الاحتلال الأوربى ومن الأمور ذات الدلالة أن القوات العربية التى تم جمعها من كل الدول العربية كانت أقل من قوات العدو الصهيونى التى ساعدها الغرب كثيراً.

ثالثا : استمرار مؤسسات المواجهة الثقافية الصهيونية بعد قيام الدولة :

بعد قيام دولة اسرائيل ، استمر عمل مراكز الدراسات والأبحاث التى تهتم بدراسة العالم العربى وتطور المجتمعات العربية. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الحركة الصهيونية كانت حريصة تماماً على أن تنشئ الجامعة العبرية قبل قيام الدولة ، بل إن عدداً من الأساتذة الأوائل فى هذه الجامعة تخصصوا بالدراسات العربية ودرسوا فى البلاد العربية نفسها.

وتهتم مراكز الدراسات والبحوث الاسرائيلية بكافة جوانب الحياة فى مختلف البلاد العربية. ومن اللافت للنظر أن عددا كبيراً من المؤسسات العلمية ومراكز الدراسات والبحوث الإسرائيلية قد تأسست أيضا قبل قيام الدولة الإسرائيلية

نفسها فى فلسطين [١]، فضلا عن أن عددا آخر كان يعمل فى أوربا وأمريكا قبل ذلك[٢].

وهناك مراكز للدراسات التاريخية والاجتماعية والانثروبولوجية والاقتصادية والسياسية، وكلها تصب فى مجرى واحد يستخدم المعلومات التى توفرها البحوث والدراسات التى تجريها هذه المراكز فى خدمة أهداف الحركة الصهيونية واستخدام الثقافة سلاحًا هامًا من أسلحة الصراع ضد العرب . ويمكن أن ندلل على مدى اهتمام صانعى السياسة الإسرائيلية بالثقافة من خلال الاتفاقية الثقافية التى وقعت بين مصر وإسرائيل فى القاهرة ٨ / ٥ / ١٩٨٠م ، وتم تعليق سريانها على مصادقة حكومة اسرائيل ومجلس الشعب المصرى[٣].

١- أحمد مرسى وفاروق جودى، الفولكلور والاسرائيليات، ص١٥-٥٩ .

٢- حامد ربيع ، دراسات أساسية حول الصهيونية وإسرائيل ، ص١٢-١٨ .

٣- صادقت الحكومة الإسرائيلية على الاتفاقية بتاريخ أول يونيو ١٩٨٠م : صحيفة دافار الاسرائيلية بتاريخ ٢ / ٦ / ١٩٨٠م ، نقلا عن محسن عوض السيد وسيد البحراوى، أربع سنوات على التطبيع الثقافى بين مصر واسرائيل ، ص١١ .

ومدة الاتفاقية خمس سنوات قابلة للتجديد تقع فى ثمانى مواد تتضمن : تشجيع التعاون فى المجالات الثقافية والعلمية والفنية، وتشجيع تبادل الزيارات بين العاملين والخبراء فى هذه المجالات، فضلا عن تبادل المطبوعات الثقافية والعلمية والتعليمية وبرامج الاذاعة والتليفزيون والأفلام الثقافية والعلمية. وغير ذلك(١).

ويزيد من فهمنا لطبيعة الاهتمام الصهيونى بالمواجهة الثقافية الدور الذى يقوم به المركز الأكاديمى الإسرائيلى فى القاهرة؛ فهو مركز يهتم ، حسب قول رئيسه الأسبق شمعون شامير من جامعة تل أبيب ، بجميع المجالات العلمية والثقافية من اقتصاد وطب وزراعة وآثار ودراسات إسلامية والدراسات العربية ... وما إلى ذلك. ومما يلفت النظر بشدة أن حجم النشاط «الثقافى» الإسرائيلى فى مصر يفوق كثيرا ما هو طبيعى بين بلدين ما تزال أسباب العداوة والبغضاء بشدة هى أساس العلاقة بينهما. كما أن هذا النشاط يغطى مساحة كبيرة من واقع العمل الثقافى المصرى تكاد تشمل كل مجالات هذا العمل، فضلا عن أن

١- المرجع السابق ، ص١٢ .

أهدافه ليست ثقافية أو علمية خالصة[1]. ومع هذا، فإننا يجب أن نسجل أن هذا النشاط الإسرائيلى المكثف على الجبهة الثقافية المصرية قد تراجع كثيراً أمام صمود المثقفين المصريين ورفضهم التعاون مع العدو بغض النظر عن الآحاد الذين لايمثلون سوى أنفسهم والذين أسقطت ممارسات إسرائيل البشعة ورقة التوت التى كانت تستر عورتهم الثقافية.

وإذا كنا قد أسهبنا قليلاً فى الحديث عن النشاط الثقافى الإسرائيلى فى مصر، فذلك لأن الوجود الرسمى الإسرائيلى قائم فى القاهرة بحكم اتفاقات كمب ديفيد من ناحية، ولأن هذا هو النموذج الظاهر الذى يمكن رصده من ناحية أخرى.

رابعًا : محاولة اختلاق دور تاريخى وجذور حضارية لاسرائيل فى المنطقة:

بعد سرقة الأرض العربية ، وإقامة الكيان الصهيونى فوقها ، نشطت الأجهزة والمؤسسات

١- نفسه ، ص٢٥-٢٧ .

الثقافية الصهيونية لمحاولة نفى غربة إسرائيل الحضارية عن المنطقة التى اغتصبوا فيها أرض فلسطين العربية . وكان لابد لهؤلاء المستوطنين الغرباء أن ينتحلوا لأنفسهم تاريخا وحضارة وتراثا وهوية تعطى للدولة جذورا تفتقر إليها. وأخذ كتاب الأدب والتاريخ اليهود منذ القرن التاسع عشر يعيدون كتابة التاريخ دون أن يقفوا عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظرهم ، بل وصل بهم الأمر إلى القيام بعملية تشويه منظمة للتاريخ العربى(١).

هذه الحركة التى كانت تهدف إلى إحياء ما يسمى بالوعى القومى اليهودى، والدفاع عن «الطابع القومى اليهودى» ، على الرغم مما هو معروف من أن الجماعات اليهودية فى شتى أنحاء العالم لم تكن تملك لغتها القومية الخاصة ولم تكن تجمع بينها عناصر التراث المشترك ، بل كانت تستخدم لغة المجتمع الذى تعيش فى رحابه ، أو خليطا من تلك اللغة وبعض الكلمات والمصطلحات العبرية ذات المدلول الدينى فى غالب

١- حامد ربيع ، دراسات أساسية ، ص١٨ .

الأحــوال[1]. وتعيــش فى إطار العـادات والتـقاليد السـائدة فى المجـتـمـعـات التى عـاشـوا بـهـا. وهـو أمـر تؤكـده أحـوال الجماعات اليهودية التى ما تزال تعيش خارج إسرائيل حتى الآن . وبعـد نجـاح الحـركة الصــهـيونيـة فى سـرقـة الوطـن العــربى الفلسطينى، وزرع الكيـان الاســرائيلى عليــه، بدأ الصـهاينة يحاولون سرقـة التراث والتاريـخ العربى، وينسبونه لأنفـســهم، بل إن المشكلة تعـدت الدراســات والكتـابات التى يمكن الرد عليها وتفنيدها .

لقد سرق الصـهاينة الوطن الفلسطينى، وراحـوا يخـتلقون لأنفـســهم وجـوداً تاريخـياً على الأرض العـربيــة ، وامـتـدت أياديهم تسرق التـراث والفن والتـقاليـد العربيـة وتنسبـهـا إلى الإســرائيليين . وراحت مـراكـز الدراســات والأبحـاث تصـطنع

٢٧- قـاسم عبده قـاسم: رؤية إسـرائيليـة للحـروب الصليبيـة، دار الموقف العربى (القـاهرة ١٩٨٣)، ص٤٥-٤٨ . ومن المهم أن نشير هنا إلى أن اليهود فى العالم العربى عامة كانوا يستخدمون اللغة العربية فى كتاباتهم الدينية. بل إن مجموعة وثائق «الجنيزا» التى كشفت فى معبد يهودى فى مصر القديمة فى أواخر القرن الماضى كتبت باللغة العربية ولكن بحـروف عبـرية، وكذلك كـانت لغـة الييـديشى لغـة يهود ألمانيا فى العصور الوسطى .

الجذور للاسرائيليين . بل إنهم راحوا يطرحون فى الأسواق العالمية الملابس العربية المطرزة ، والحلى والجواهر، والمشغولات المعدنية العربية، فضلا عن أصناف الحلوى العربية التى يدعون أنها جميعا نتاج التراث الاسرائيلى. وتكتمل جوانب المخطط اليهودى لسرقة التاريخ والتراث العربى بالرقصات والأغانى الشعبية العربية التى يقدمونها للعالم باعتبارها تراثًا شعبيا إسرائيليا . وهم فى هذا الصدد لايترددون فى استخدام كل مفردات الفنون الشعبية والتراث الشعبى الفلسطينى خاصة والعربى بشكل عام وقد تم هذا كله فى إطار خطة للمواجهة الثقافية تجرد الفلسطينيين من تراثهم وتاريخهم وهويتهم ، وتنسبه للإسرائيليين باعتباره تراثهم الشعبى.

خامسا: الافادة من الدراسات والبحوث فى توجيه الصراع ضد العرب:

هناك العديد من مراكز البحث فى الجامعات وخارجها تهتم برصد المجتمعات العربية وتبحث فى المكونات النفسية والتراثية والثقافية للشعوب العربية ؛ وكثيراً ما تتعاون هذه

المراكز الإسرائيلية مع مراكز البحث والمعلومات والدراسة فى العالم الرأسمالى.

وتصب نتائج هذه الدراسات والبحوث فى خدمة الدراسات المستقبلية لاحتمالات المواجهة والصراع . ولاشك فى أن رصد نسبة الزيادة فى عدد المواليد الفلسطينيين ، وهو الأمر الذى استحوذ على اهتمام المسؤولين الاسرائيليين وأقض مضاجعهم، لم يكن صدفة عشوائية، بل هو محصلة دراسات سكانية وسياسية. كما أن الدراسات الاسرائيلية عن تطور بنية المجتمع المصرى، واتجاهات الرأى العام فيه، وعلاقات القوى الاجتماعية ، والدراسات الاقتصادية وعشرات الدراسات التى نشر بعضها ، كلها تشير إلى أن هذه الدراسات ليست بهدف المعرفة الأكاديمية البريئة. كذلك فإن تغيير البنية الاقتصادية للأراضى المحتلة ، وربطها بعجلة الاقتصاد الإسرائيلى ، لم يكن ليتم بدون دراسة وبحث.

وما جرى فى شبه جزيرة سيناء ، أثناء الاحتلال الاسرائيلى، دليل على مدى توجيه الدراسة والبحث لخدمة القرار السياسى الاسرائيلى. فقد أجريت دراسات مهمة على سكان شبه الجزيرة من البدو، سواء فيما يتعلق بعادات البدو

وتقاليدهم، أو أنساق القيم والمثل التى تحكم سلوكهم أو معتقداتهم وتراثهم .. كما أن الدراسات الجغرافية والجيولوچية التى أجريت على شبه جزيرة سيناء أثناء فترة الاحتلال ، فضلاً عن عمليات التنقيب عن الآثار وسرقتها - كلها تصب فى هذا الاتجاه الذى يهدف إلى سرقة التاريخ بعد سرقة الأرض العربية .

سادسًا : الاختراق الثقافى للعالم العربى:

كثيرا ما تنتابنا الحيرة ونحن نلاحظ أن العالم العربى عاجز عن أن يتفق حول أولويات العمل النضالى فى مواجهة العدو الصهيونى. وكثيراً ما نلاحظ ازدواجية مرضية تجعل كلامنا على النقيض من سلوكنا. وإن نظرة على موقف العالم العربى من الانتفاضة الفلسطينية التى تجرى فصولها فوق تراب الأرض المحتلة منذ فترة طويلة تكشف عن تجسد العجز العربى الفادح.

هذا العجز العربى الفادح يمكن تفسيره - جزئيًا على الأقل- فى ضوء غياب أى وعى بأهمية الثقافة فى حسم الصراع. وكثيرون من صناع القرار السياسى العربى لايدركون أن الثقافة تشكل المواقف الوجدانية والعقلية التى

تخلق الحد الأدنى من وحدة الموقف الفكرى الذى يكون أساسا للقرار السياسى. ولأن الصراع السياسى- بأبعاده العسكرية - هو فى التحليل الأخير تحقيق عملى على أرض الواقع لأفكار فى عقول قادة الجماعة، فإن البنية الثقافية لقادة أية جماعة انسانية تحكم بالضرورة نمط السلوك السياسى والتصرف العسكرى لهم. وهذا أمر يصدق على الحكومات وحدها لكنه لاينسحب بالضرورة على الشعوب العربية التى تمارس المقاومة بشكل يومى والتى تتجسد مواقفها المناقضة لمواقف الحكومات على كافة الأصعدة. وإذا نظرنا إلى ما يجرى فى فلسطين والعراق فسنجد بسهولة شديدة أن الحكام يسقطون بسرعة ، على نحو ما حدث لصدام حسين ، ولكن الشعوب لاتقبل لنفسها الموت.

ومن ناحية أخرى يمكن تفسير هذا العجز العربى عن اتخاذ موقف مشترك فى ضوء ما تحقق للصهيونية والرأسمالية العالمية، والرجعية العربية ، من نجاح فى مجال الاختراق الثقافى. بحيث صار من المألوف أن نسمع الحكام العرب يرددون مصطلحات «العدو» التى يستخدمونها ضدنا!!

ولست ممن يأخذون بالتفسير التآمرى للتاريخ؛ ولكن تقهقر المد القومى العربى والروح الوطنية أمام تيار الإقليمية والقبلية، وتداعى روح النضال أمام تغلغل شعارات المصالحة والاستسلام على المستوى السياسى، كان مصحوبا بنمو النزعة الفردية والأنماط الاستهلاكية وقيم التنافس الفردى على حساب المجموع ورفاهية الفرد على حساب المجتمع. كما أن السنوات القليلة الماضية زرعت النموذج الغربى (الأوربى/ الأمريكى) باعتباره نموذجًا مرجعيا فى التعليم والإعلام ، فى التنظيم الاجتماعى والبناء الاقتصادى؛ بغض النظر عن حقائق الحياة ومتطلباتها فى المجتمعات العربية. وعلى فراش الثروة التى هبطت على العرب فى أعقاب حرب أكتوبر خمدت أنفاس الثورة . وبدلاً من أن تتحول الثروة إلى عنصر قوة يساند الأمة العربية فى نضالها ، تحولت هذه الثروة إلى أداة لتكريس الهزيمة النفسية والتبعية السياسية والدونية الثقافية. وانتهى الأمر بحكامنا إلى تصلب شرايينهم السياسية بعد تصلب شرايين قدرتهم على العمل ، أى عمل، بحيث عجزوا حتى عن مجرد الاجتماع للكلام.

تخلق الحد الأدنى من وحدة الموقف الفكرى الذى يكون أساسا للقرار السياسى. ولأن الصراع السياسى- بأبعاده العسكرية - هو فى التحليل الأخير تحقيق عملى على أرض الواقع لأفكار فى عقول قادة الجماعة، فإن البنية الثقافية لقادة أية جماعة انسانية تحكم بالضرورة نمط السلوك السياسى والتصرف العسكرى لهم. وهذا أمر يصدق على الحكومات وحدها لكنه لاينسحب بالضرورة على الشعوب العربية التى تمارس المقاومة بشكل يومى والتى تتجسد مواقفها المناقضة لمواقف الحكومات على كافة الأصعدة. وإذا نظرنا إلى ما يجرى فى فلسطين والعراق فسنجد بسهولة شديدة أن الحكام يسقطون بسرعة ، على نحو ما حدث لصدام حسين ، ولكن الشعوب لاتقبل لنفسها الموت.

ومن ناحية أخرى يمكن تفسير هذا العجز العربى عن اتخاذ موقف مشترك فى ضوء ما تحقق للصهيونية والرأسمالية العالمية، والرجعية العربية ، من نجاح فى مجال الاختراق الثقافى. بحيث صار من المألوف أن نسمع الحكام العرب يرددون مصطلحات «العدو» التى يستخدمونها ضدنا!!

ولست ممن يأخذون بالتفسير التآمرى للتاريخ؛ ولكن تقهقر المد القومى العربى والروح الوطنية أمام تيار الإقليمية والقبلية، وتداعى روح النضال أمام تغلغل شعارات المصالحة والاستسلام على المستوى السياسى، كان مصحوبا بنمو النزعة الفردية والأنماط الاستهلاكية وقيم التنافس الفردى على حساب المجموع ورفاهية الفرد على حساب المجتمع. كما أن السنوات القليلة الماضية زرعت النموذج الغربى (الأوربى/ الأمريكى) باعتباره نموذجًا مرجعيا فى التعليم والإعلام ، فى التنظيم الاجتماعى والبناء الاقتصادى؛ بغض النظر عن حقائق الحياة ومتطلباتها فى المجتمعات العربية. وعلى فراش الثروة التى هبطت على العرب فى أعقاب حرب أكتوبر خمدت أنفاس الثورة . وبدلاً من أن تتحول الثروة إلى عنصر قوة يساند الأمة العربية فى نضالها ، تحولت هذه الثروة إلى أداة لتكريس الهزيمة النفسية والتبعية السياسية والدونية الثقافية. وانتهى الأمر بحكامنا إلى تصلب شرايينهم السياسية بعد تصلب شرايين قدرتهم على العمل ، أى عمل، بحيث عجزوا حتى عن مجرد الاجتماع للكلام.

ونتيجة لغياب الوعى ، أو وعى الغيبوبة ، بدأنا نحتمى من عدونا بعدونا نفسه . بل إن البعض بدأ يروج لفكرة العبقرية الاسرائيلية القادرة على انتشالنا من وهدة التخلف . بل إن بعض الأصنام الثقافية سارعت إلى «التبشير» لتحقيق هذا الموقف . وفى خضم هذه الضبابية الثقافية نسينا أولويات الصراع وحقائقه البديهية . وبدلاً من أن نتقدم نحو ممارسات أكثر صلاحية أخذنا نتعثر فى طريق المواجهة ضد الصهيونية.

وعلى الجانب الآخر وجدنا قسمًا هائلاً من أبناء المجتمعات العربية وقد هالهم هذا الاختراق الثقافى والعجز العربى فى مواجهته ، فهربوا إلى مغاور التاريخ وكهوف السلف يريدون العودة إلى زمن لايعود . وكان طبيعيا أن يفرز هذا التيار بعض الفصائل التى تريد العودة بالعالم العربى إلى عصر الظلام الذى أعقب تدهور الحضارة العربية الإسلامية وعدونا الصهيونى يستغل هذا الاتجاه لصالحه تماما فى إطار حربه الثقافية ضدنا ؛ فهو يستخدم ما يطرحه هذا التيار الجامد المتحجر ليبين للعالم أن المنطقة العربية - بكل ما تحمله من أهمية - لايمكن أن

تُترك للعرب المتخلفين الذين تحجرت أفكارهم بحيث تماثل ما كان مطروحاً فى أوربا العصور الوسطى . ثم جاءت هجمات ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة الأمريكية فرصة ذهبية للصهيونية لاستغلال الحادث وحالة الهياج العاطفى لتصعيد حربها الثقافية ضد العرب. ونشط قادة هذه الحرب من أمثال برنارد لويس من جرعة الكراهية ضد العرب.

ويبقى السؤال : ماذا عن دور العرب فى هذه المواجهة الثقافية ؟

بداية ، يجب أن نقرر بكل حزن وأسى، أن الوضع على الجبهة الثقافية العربية غاية فى السوء. فكثير من النظم العربية الحاكمة تتخذ موقفا مجافياً للثقافة ؛ بل إن بعضها يقف من الثقافة موقفاً معادياً أو موقفاً تحوطه الريبة والشك فى أحسن الأحوال . وكثيراً ما تخلط الحكومات العربية بين الإعلام والثقافة . بل إن مفهوم الإعلام متخلف إلى حد كبير ويركز على الترويج لفكرة الحاكم الفرد بكل المفاهيم الأبوية القبلية والريفية التى عفا عليها الزمن . وفى معظم الأحيان تتعامل بعض الحكومات العربية مع شعوبها

على أنهم مجموعة من البلهاء شاء حسن حظهم أن يكون حكمهم بيدى هذا الحاكم العبقرى أو ذاك .. !!

وعلى الرغم من أن الدول العربية أنفقت أموالاً طائلة على الإعلام لتحسين صورتها أمام الغرب الأوربى والأمريكى (الذى يشعرون تجاهه بالدونية والتبعية) فإن طريقة إنفاق الأموال العربية وأسلوب هذه الحكومات فى الإعلام كان من أكثر الأدوات فاعلية فى ترسيخ صورة العربى القبيح فى الوجدان العالمى عموما، والأوربى والأمريكى بوجه خاص.

أما فى مجال المواجهة الثقافية ، فإن المحاولات الجادة أقل من الإمكانات العربية بكثير؛ بل إنها غالبًا ما تتسم بالفردية والجزئية وعدم المتابعة. وعندما تبذل مثل هذه الجهود تحت إشراف حكومى ، فإن الصفة الاحتفالية والمظهرية تغلب عليها فى كثير من الأحيان.

ومن اللافت للنظر حقًا أن مراكز الأبحاث والدراسات التى تهتم بدراسة العدو الصهيونى ما تزال قليلة إلى حد الندرة، كما أن معظم أعمالها تهتم بالجوانب العسكرية والسياسية . وعلى الرغم من أن الإسرائيليين انتهزوا فرصة اتفاق كامب

يفيد للتوسع فى نشاطهم على جبهة الثقافة ، فإن استغلالنا هذا الجانب ظل محدودا بشكل غير معقول.

ومن الأمور ذات الدلالة أن مركز الدراسات الاستراتيجية فى جريدة الأهرام قد بدأ وجوده بالتخصص فى الدراسات الصهيونية ، وحقائق الصراع العربى/ الصهيونى، وواجه المتاعب فى عصر السادات، ثم فرضت عليه التطورات أن يصبح أكثر شمولاً. وقد كان من أهم أعمال الصهاينة أثناء غزو لبنان سنة ١٩٨٢م تدمير مركز الدراسات الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير والاستيلاء على وثائقه وأوراقه . ولست بصدد تسمية مراكز الدراسات والبحوث فى كافة أرجاء الوطن العربى. ولكن الحقيقة تبقى واضحة أن الجهد العربى على مستوى المواجهة الثقافية ما يزال بعيداً عن اللحاق بالجهد الصهيونى/ الرأسمالى. وليس هذا ناتجًا عن قصور طبيعى فى العقلية العربية؛ وإنما يرجع فى تصورى إلى أن الحكام والمسؤولين فى العالم العربى ما يزالون على موقفهم المجافى للثقافة؛ ومن ثم فإن البعد الثقافى للصراع العربى/ الإسرائيلى ما يزال فى ذيل قائمة الأولويات العربية. بل إن الضغوط الأمريكية والصهيونية فى المجال الثقافى زادت

بشكل فج بحيث أمكن إغلاق أحد مراكز البحوث المهمة فى منطقة الخليج العربى ، كما تزايد انصياع الحكام بشكل مطرد لأوامر الأمريكيين فيما يتعلق بالثقافة والتعليم ، لاسيما بعد الغزو الأمريكى- البريطانى للعراق ، والذى أخاف الحكام العرب من عواقب «عصيان» السيد الأمريكى العامل لحساب الصهيونية.

وأخيراً ، فإن الجهود الفردية والطبيعية لايمكن أن تكون بديلاً عن خطة ثقافية شاملة لاتهتم بالإعلان والإعلام الذى يركز على الحكام بقدر ما تهتم بالبحث والمعرفة باعتبارها أداتين فعالتين من أدوات الصراع ضد الصهيونية .

ملاحظات ختامية

قدمنا فى الصفحات السابقة الخطوط العريضة للقراءة الصيونية للتاريخ، وقد ركزنا حول تاريخ الحروب الصليبية باعتباره نموذجاً لهذه القراءة. وقد اخترنا الأستاذ الاسرائيلى المعاصر يوشع براور، والذى اعتبرناه «ممثلاً لهذه القراءة الصهيونية » التى هى جزء من القراءة الصهيونية العامة للتاريخ. وقد يكون هناك من المؤرخين الاسرائيليين من يختلف مع براور فى بعض تفاصيل هذه الرؤية، ولكن حافزنا علي اختيار هذا الكاتب محورا لدراستنا هذه نبع من خلال الحقيقة القائلة بأن موقف المؤلف يتسق مع الموقف اليهودى العام من الحروب الصليبية من جهة ، وأنه يعد نموذجا واضحا لأحد أساليب الحركة الدعائية الصهيونية التى تركز على استخدام الأدب والتاريخ لخدمة الأهداف الصهيونية من جهة أخرى.

فموقف يوشع براور من حوادث اضطهاد يهود أوربا على أيدى الصليبيين يتخذ نفس الخط الصهيونى العام لفكرة أمة الشهداء ، ومعاناة الشعب المنفى فى الشتات على الدوام،

وبالشكل الذى يجعل من الحركة الصهيونية وانشاء الدولة اليهودية فى فلسطين حتمية تاريخية. وهى الفكرة التى تقوم على أساسها القراءة الصهيونية للتاريخ تحقيقا لأهداف الحركة الصهيونية. كما أنه يروج لفكرة معاداة السامية كتيار قديم ضد اليهود، وهى فكرة يروج لها الصهاينة لكى يبتزوا بها ضمير العالم الغربى . وثانيا ، نجد يوشع براور لايترك فرصة واحدة دون أن يحاول اختلاق دور تاريخى لليهود فى خضم أحداث الحركة الصليبية ، وإبراز أى دور لليهود مهما يكن تافها وهى محاولة تتناغم مع الموقف اليهودى العام فى محاولة سرقة التاريخ العربى عامة، وفى هذه الفترة التاريخية على نحو خاص.

وثالثا، أن يوشع براور يركز على دراسة الكيان الصليبى فى مصطلحات اسرائيلية بمعنى أنه يقوم ببعض الاسقاطات المعاصرة على مفهوم الآمن والحدود الطبيعية، وعلى مشكلة الموارد البشرية والهجرة، وعلاقة الكيان الصليبى بالظهير الأوربى المساند له، وعلى علاقة الكيان الصليبى ذى الطبيعة العسكرية بجماهير العرب المعادية.. وغير ذلك من الأمور التى تكشف عن أنه يدرس الوجود الصليبى فى الشرق بعين

المستوطن الاسرائيلى وعقله. إذ إن المستوطن الذى يعيش فوق نفس الأرض التى شهدت أحداث الصراع بين الصليبيين منذ تسعة قرون، وتشهد الآن تطورات الاحتلال الاستيطانى الصهيونى الذى بدأ منذ النصف الأول من القرن العشرين.

والمؤلف الاسرائيلى يستخدم كتابه ، الذى يتوجه به إلى عامة المثقفين المتحدثين باللغة الانجليزية لزرع بعض المقولات الخاطئة ضد العرب.

على أن ما يسترعى انتباهنا فى هذا الموضوع أن هناك عدة جوانب أساسية للشبه بين الكيان الصليبى والكيان الصهيونى افرزت عدة مشكلات متشابهة أيضا. فمع تسليمنا بوجود الكثير من وجوه الخلافات الناتجة عن تغير الظروف التاريخية الموضوعية ، وحركة العلاقات الدولية، ومفاهيم علاقات القوى... وما إلى ذلك، فإننا نرى أن المكونات الأساسية لكل من الكيان الصليبى والكيان الصهيونى على الأرض العربية متشابهة ، ومتماثلة فى بعض الأحوال. لقد ارتبطت كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية بفكرة الخلاص والأرض الموعودة على نحو ما، كما كانت كل منهما إفرازا لحقائق الحياة السياسية / الاجتماعية والاقتصادية

فى مجتمع بعيد عن المنطقة. وتم زرع المملكة اللاتينية والدولة اليهودية بالقوة المسلحة وعلى حساب المهاجرين العرب الذين حل محلهم مهاجرون من خارج المنطقة . وكانت حال الضعف والتفكك فى العالم العربى أكبر عوامل نجاح كل من الصليبيين والاسرائيليين. كما ظل الكيان الصليبى يستمد العون من الظهير الأوربى، وها هو الكيان الصهيونى يعيش بفضل العون والدعم من ظهيره الأوربى/ الأمريكى.

ومن ناحية أخرى فإن المشكلات الأساسية للصليبيين والاسرائيليين كانت واحدة، أو متشابهة على الأقل: فالغربة الحضارية كانت سمة هامة من سمات المستوطنات الصليبية وهى أيضا من خصائص المجتمع الاسرائيلى الغريب عن المنطقة العربية. حقيقة أن الاسرائيليين يحاولون نفى هذه الغربة الحضارية فيسرقون التاريخ العربى، وينتحلون التراث الشعبى العربى ويدعون ملكية الفنون الشعبية العربية بكافة أنماطها، ويباهون الدنيا بالصناعات الشعبية والمأكولات والحلوى العربية التى يدعون ملكيتها، وينقلون الآثار من المناطق المحتلة إلى متاحفهم ... ولكن هذا كله لايمكن أن يخفف من وضوح غربتهم الحضارية عن المنطقة.

كذلك فإن مشكلة الموارد البشرية والهجرة التى كانت من أهم عوامل الفشل والإخفاق فى تاريخ الوجود الصليبى فى المنطقة ، ما تزال من أشد هموم الكيان الاسرائيلى وطأة، وعلى الرغم من نجاح الحركة الصهيونية فى رفع عدد السكان إلى ما يتراوح بين ثلاثة ونصف مليون وأربعة ملايين نسمة فى اسرائيل ، فإن نسبتهم العددية إلى دول المواجهة تبدو ضيئلة بالفعل. ومع أن اسرائيل تحاول باستمرار جذب المزيد من المهاجرين من ناحية وتحاول تعويض النقص الكمى بالتفوق الكيفى فإن الزمن لايبدو أنه سيكون فى صالح الاسرائيليين فى هذه المسألة ، فقد أخذت الدول العربية بأسباب التقدم مما يمكن أن يقضى على أوهام التفوق الكيفى الإسرائيلى. على أية حال فإن مشكلة الموارد البشرية والهجرة فى اسرائيل ما تزال من أهم عوامل الضعف مثلما كانت عاملا سلبيا فى الوجود الصليبى منذ عدة قرون.

لقد وجد الكيان الاسرائيلى وسط محيط بشرى معاد، ولقد أثبتت الحروب المتوالية أن اعتماد الاسرائيليين على القوة العسكرية ، وعلى مفاهيم الأمن والحدود الطبيعية والتى تتشابه مع مفاهيم الصليبيين بدرجة تجعلنا نعتقد أنها

مستوحاة منها، لايمكن أن يكفل البقاء لاسرائيل فى هذه المنطقة. لقد حقق الصليبيون فى الماضى عدة انتصارات على المسلمين. ولكن كل انتصار كان يحرزه المسلمون على الصليبيين كان يعنى خطوة فى طريق الموت للكيان الصليبى، وقد استطاعت اسرائيل بمساندة غربية أن تحرز عددا من الانتصارات على العرب، ولكن هزيمتها فى حرب أكتوبر جعلت ظهيرها الأمريكى/ الأوربى يسارع إلى حرمان العرب من ثمار انتصارهم، وبسبب الفشل السياسى والقصور الذى انتج تفتت العالم العربى تحولت ثمار النصر إلى مكاسب اسرائيلية . إن هزيمة كاملة للكيان الاسرائيلى فيها نهايته ، ولكن العالم العربى يمكنه أن يستوعب أكثر من هزيمة حتى يمكنه تسخير موارده وامكانياته لمقاومة العدوان.

يقودنا هذا إلى مشكلة الظهير، فقد اثبتت حرب أكتوبر أن اسرئيل لايمكنها العيش بدون المساندة الأمريكية / الأوربية. وإذا كان البعض يقول بأننا لايمكن أن نحارب الولايات المتحدة من خلال اسرائيل، فإن الوجه الآخر من هذه العملة أن اسرائيل لايمكن أن تحارب العرب دون مساندة هذا الظهير. ولكن هذا لايجب أن يعنى التسليم للأمريكيين بحجة

أنهم يملكون ٩٩٪ من أوراق الحل. لأن هذه الأوراق ضدنا وليست معنا حسبما كشف بوش فى لقائه الأخير مع شارون ومن ناحية أخرى، تكشف أحوال الاقتصاد الاسرائيلى عن أن اسرائيل لايمكنها العيش اعتمادا على مواردها الذاتية الفقيرة، فهى تعتمد على الغرب من أجل امدادها بالسلاح والمقاتلين، ومن أجل امدادها بالمال أيضا . ولكن المتغيرات فى علاقات القوى الدولية والتى جعلت اسوائيل تغير حلفاءها وفقا لقوتهم فى مجال التوازن الدولى تجعلنا نتساءل عما إذا كان بوسع الاسرائيليين أن يعولوا كثيرا على الظهير المساند من خارج المنطقة. لقد أثبتت أحداث الحروب الصليبية أن حركة المجتمع يمكن أن تخلق تنافرا فى المصالح بين الظهير الأوربى والكيان اللاتينى فى الشرق، كما أثبتت أن بروز بعض القوى الاجتماعية الجديدة فى أوربا آنذاك جعل الأوربيين ينصرفون إلى مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن الصليبيين ومشاكلهم فى الشرق.

إن اسرائيل تحاول أن تحل مثل هذه المشكلات بالحرص على الفرقة والتشرذم الذى يميز القوى العربية فى المنطقة من ناحية، ومن خلال محاولة فرض التخلف

واجهاض كل محاولات التنمية والتقدم من ناحية أخرى، بحيث يتمكن الاسرائيليون من زعامة المنطقة اقتصاديا، وجعل الدول العربية مجرد توابع وأسواق تخدم الاقتصاد الاسرائيلى.

وتبقى مسألة المواجهة الثقافية مع العدو الصهيونى لتكشف عن فشل المؤسسات الرسمية العربية عن التصدى للجهد الثقافى الصهيونى . وعلى الرغم من أن جهوداً كثيرة بُذلت ، وما تزال تبذل حتى الآن (من الأمثلة المشرفة فى هذا السبيل مركز الدراسات الشرقية فى جامعة القاهرة) فإنها تظل جهودا فردية ، ولاتخضع لأى نوع من التنسيق.

وربما تكون العيوب الهيكلية فى البنية السياسية لمعظم النظم العربية ، وطريقة اختيار مستويات الإدارة العليا والوسطى، وراء عدم إفادة العمل السياسى العربى، من نتائج العمل الثقافى والفكرى المقاوم للحركة الصهيونية.

هذه بعض الملاحظات الختامية التى لا أزعم لنفسى القدرة على تحليلها، فهذه مهمة اتركها للزملاء المتخصصين فى تاريخ الحركة الصهيونية والعلاقات العربية الاسرائيلية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : العربية والمعربة :

١- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى).

- الكامل فى التاريخ ، ج١٠ دار صادر - بيروت ١٩٦٥م.

٢- أحمد على مرسى وفاروق محمد جودى (دكتور) :

- الفولكلور والاسرائيليات ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م.

٣- أسعد رزق :

- فى المجتمع الاسرائيلى- محاولة أولية لدراسة التناقض والتكامل من زاوية علماء الاجتماع فى اسرائيل وخارجها. معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧١م

٤- تهانى هلسه :

- دافيد بن جوريون منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث سلسلة دراسات فلسطينية(٤) .

٥- جمال الدين الشيال (دكتور):

- تاريخ مصر الاسلامية دار المعارف- القاهرة ١٩٦٧م.

٦- ج.م. هسى:

- العالم البيزنطى .. ترجمة وتقديم وتعليق د. رأفت عبد الحميد دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٢م.

٧- حامد ربيع (دكتور) :

- دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل، دمشق ١٩٧٣م.

٨- سعيد عاشور (دكتور) :

- الحركة الصليبية ، ج١ ، طبعة ثانية ، الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٧١م.

٩- العصر المماليكى فى مصر والشام - طبعة ثانية - دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٧٦م

١٠- بحـــوث ودراســـات فى تاريخ العــصــور الوسـطى ، بيروت ١٩٧٧م.

١١- أوربا العصور الوسطى، ج١ طبعة سادسة ، القاهرة ١٩٧٥م.

١٢- ابن شداد (القاضى بهاء الدين بن شداد) :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين الأيوبى. القاهرة ١٩٦٤م.

أبو شـامـة (شـهـاب الدين عـبـد الرحـمن بن اسـمـاعـيل المقدسى):

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١ تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد- القاهرة ١٩٦٢م.

١٤- عادل حسن غنيم :

- الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧-١٩٣٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.

١٥- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم):
- زبدة الحلب من تاريخ الحلب جزآن (تحقيق سامى الدهان) - دمشق ١٩٥٤م.
١٦- العماد الكاتب الاصفهانى:
- سنا البرق الشامى (اختصارات البندارى) تحقيق د. فتحية النبراوى ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٩م.
- الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبيح) ، القاهرة ١٩٦٥م.
١٧- عبد الغنى محمود عبد العاطى (دكتور):
- السياسة الشرقية للامبراطورية البزينطية فى عهد الامبراطور اليكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م دار المعارف ١٩٨٣م.
١٨- قاسم عبده قاسم (دكتور):
- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م.

١٩- «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية، الظاهرة ومغزاها ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط، المجلد الأول ص١٣٧-١٦٦ ، دار المعارف ١٩٨٢م.

٢٠- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة)

- ذيل تاريخ دمشق (نشرة امدروز) ، بيروت ١٩٠٨م.

٢١- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ تحقيق د. زيادة .

٢٢- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل):

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج١، تحقيق د. جمال الدين الشيال .

٢٣- نورمان ف. كانتور:

- التاريخ الوسيط : قصة حضارة - البداية والنهاية- جزآن ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم دار عين ٢٠٠١-٢٠٠٢م.

ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Abba Hillel Silver,

A history of Messianic Speculation in Israel from the first through the seventeenth centuries Boston , 1959.

2- Alan Davies,

Antisemitism and the Christian mind New York, 1969 .

3- Alexander M. Shapiro,

" Jews and Christians in the period of the Crusades

- A commentary on the first Holocaust" Journal of Ecumenical Studies . vol. 9, pp. 725-79, Temple University , 1972 .

4- Anna Comnena, The Alexiad.

Transl . from the Greek by E.R.A. Sewter , Penguin, 1979 .

5- Anonymous, Gesta Francorum et aliorum Hierosoimitanorum (The deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem) Edited by : Rosalind Hill, London 1962 .

6- Arthur Herkzberg (ed):
The Zionist Idea- A historical Analysis and Reader Atheneum, 1971 .

7- Ashtor , E.,
A social and Economic history of the Near East in the Middle Ages., London 1976 .

8- Bar Zohar , Michel :
The armed prophet : A biography of Ben Gurion, London, 166 .

9- Benjamin of Tudela,
The itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Transl and edited by : Ascher . 2 vols . London 1840 .

10- Boase, T.S.R.:

Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London 1962 .

11- Bradford, E.:

The Sword and the Scimitar- the saga of the Crusades, London 1974 .

12- Cholandon , F.:

Eassia sur la reigne d'Alexis Ier Com-nene, 1081-1118 . Paris , 1900 .

13- Le Duc de Castries:

La Conquête de la Têrre Sainte par les Croisées. Paris 1973 .

14- Edward Peters (ed) :

The First Crusade- The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials. Univ. of Pennsylvania Press 1971 .

15- Edward Pognon (ed):

L'An mille- Oeuvres de: Luitprand ,

Raoul Glober, Ademar de Chabannes , Adelberon, et Helgaud, France 1974 .

16- Frederick H. Russell:
The Just war in the Middle ages, Combridge Univ. Press1973 .

17- Hans Eberhard Mayer:
The Crusades (Transl. from German by L Joh Gillingham) Oxford 1972 .

18- Leon Poliakov :
The history of Antisimitism (Transl from french by: R. Howard) New York 1974 .

19- Morris Yaa Kov :
Masters of the desert , New York 1961 .

20- Norman F. Cantor :
Medieval History : The life and death of a civilization 2 nd . ed.) New York

1969 .

21- Painter, S:

A history of the Middle Ages. England 1955 .

22- Prawer , J. :

Histoire du Royaume Latin de Jerusalem (traduit d'Hébru par G. Nahon, revu et Complété par L'auteur) 2 toms. Paris 1969 .

23- Parkes, J.:

The Conflict of the church and the Synozogue A study the origin of Antismetism, Athenuem 1969 .

24- Robert S. Lopez:

The Commerical Revolution of the Middle Ages , 1950-1350 . Combridge Univ. 1974 .

25- Runciman, S .:

A history of the Crusades, New York

1964 .

26- Setton, K.M.:

History of the Crusades, Philadelphia 1953 .

27- Smail, R.C.,:

Crusading Warfare , 1097-1193, Cambridge Unvi. Press, 1978 .



الفهـرس

صفحة

مـقـدمـة المؤلف ٣

الفصل الأول :

الحـركـة الصليـبـيـة مـاهيـتـهـا وتـطـورهـا ٧

الفصل الثانى :

الموقـف اليـهـودى من الحـروب الصليـبـيـة ٥٤

الفصل الثالث :

القـراءة الصـهيـونيـة للحـروب الصليـبيـة ٨٣

الفصل الرابع :

البعد الثقافى فى الصراع العربى - الإسرائيلى ١٤٩

ملاحظات ختـامية ١٨٧

قائمة المصادر والمراجع ١٩٥